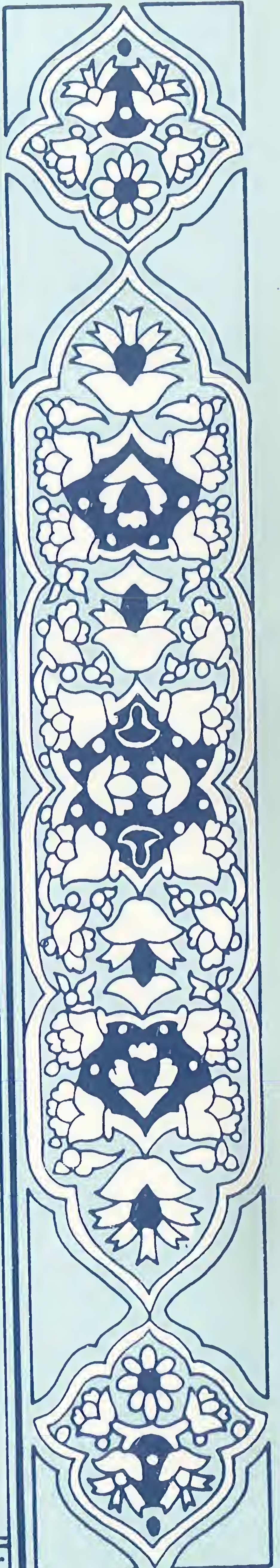
حول تفسير سورة ق

بقلم

عبد الله سراج الدين

مكتبة دار الفلاح

حلب - أقيول



بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن كبار المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيراً ، إنه هو السميع العليم

آمين

حول تفسير سورة ق

بقلم

عبد الله سراج الدين

مكتبة دار الفلاح
حلب - أنبول

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

مطبعة الصباح
دمشق - هاتف ٢٢٢١٥١٠
عدد النسخ (١٠٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين، وعليهم وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة «قٓ»

هذه السورة الكريمة قد جمعت أصول الإيمان، وبيّنت ذلك على ضَوء البراهين والأدلة القاطعة:

فقد تضمنت ذكر التوحيد، وإثبات وجود الله تعالى الحق، وإثبات النبوات، كما دل على ذلك ﴿**القرآن المجيد**﴾، كما تضمنت ذكر إثبات صفات الله تعالى، ونزاهته عن النقص، فإنَّ هذا القرآن مَجيد، ليس من كلام البشر؛ بل هو من كلام خالق البشر، نَزّله على نبيه ورسوله سيدنا محمد سيد البشر صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

كما تضمنت أيضاً الإيمان بالملائكة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد**﴾.

كما تضمنت ذكر الرسل: ﴿**كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسِّ...**﴾. الآيات.

كما تضمنت ذكر القيامتين: الصغرى وهي قيامة الإنسان، والكبرى وهي الآخرة.

وتضمنت ذكر عالم الدنيا وعالم الآخرة.

وذكر وفاة الإنسان وحال وفاته ويوم مَعاده.

كما تضمنت إحاطة علم الله تعالى وإحاطة قدرته بهذا الإنسان؛ حتى عِلمه سبحانه بوساوس الإنسان الخفية.

كما تضمنت ذكر حال أهل الجنة وأهل النار:

وكيف يساق أهل النار إلى النار ويلقون فيها.

وكيف يدخل أهل الجنة الجنة واستقبال الملائكة عليهم السلام وترحيبهم، وتحية الله تعالى لهم، وخطابه وبشائره لهم.

كما تضمنت ذكر كمال قدرته بذكر العوالم المحيطة بالإنسان وهي السموات والأرض وما بينهما دون تعب ولا نصب.

ثم ذكر الله تعالى حالات القيامة وما يعتري الأرض من تغيرات، وحال الحشر والنشر وقدرته على ذلك، وأنه عليه يسير.

وذكر فيها أموراً وأموراً..

ومِنْ ثَمَّ كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقرأ بها في المجامع وفي العيدين، وصلاة الفجر:

كما جاء في الحديث عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقرأ في العيد بـ﴿قٓ﴾ و﴿اقتربت﴾) أخرجه مسلم وأصحاب السنن.

وعن أم هشام ابنة الحارث رضي الله عنها قالت: (ما أخذت ﴿**قٓ والقرآن المجيد**﴾ إلا من فِيْ رسول الله صلى الله

عليه وعلى آله وسلم كان يقرأ بهـا كل يـوم جمعة على المنبـر إذا خطب الناس)، أخرجه مسلم وأحمد وغيرهما.

وعن أم حبيبــة خـولــة بنت قيس الجهنيـة رضي الله عنهــا قـالت: (كنت أسمع خـطبة رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم يوم الجمعة وأنا في مؤخر النساء فأسمع قراءته ﴿قٓ والقرآن المجيد﴾ على المنبر وأنا في مؤخر المسجد) أخرجه ابن سعد.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قٓ والقران المجيد﴾

افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة باسم حرف ﴿قٓ﴾ وقد اختلف العلماء في المراد بأسماء الحروف المفتتح بها السور، كلٌ تكلم بما انتهى إليه علمه، والظاهر والله تعالى أعلم أنَّ المراد هنا بـ ﴿قٓ﴾ الإشارة إلى قلب النبي صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم، الذي أنزل الله تعالى عليه القرآن المجيد، وذلـك من باب اقتـران ذكر المنْزَل والنازل عليه.

وفي هـذا بيان فضـل هذا القلب الشـريف الذي هـو منـزل القرآن المجيد، فإنّه قلب رفيع المستوى على جميـع القلوب، وله مَجده وشرفـه وفضله على ما عـداه من القلوب، ولذلـك خص به نـزول القرآن المجيـد، وإلى هذا الشـرف والمجـد وفضـل القلب الشريف تُرشدنا الآية الكريمة: قال تعالى: **﴿نَزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾**.

أي: نزل جبريل عليه السلام أمين الله تعالى على وحيه نَزَل بهذا القرآن المجيد على قلبك يا رسول الله خـاصة من بين سـائر القلوب.

وذلـك لأنّ الله تعالى أعـدّه لذلـك إعـداداً خـاصـاً وأمده،

فتحمل بذلك أموراً ـ لا يوجد ذلك عند غيره، فأعطاه قوة القلب وثباته.

فإنّ نزول القرآن على القلب أمره عظيم، ويحتاج إلى قوة من الله تعالى وثبات وتحمل، كما يُشير إلى ذلك قوله تعالى: **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾**.

فليتفكر العاقل في قوة قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكمال استعداده، وقوة تحمله لتنزلات القرآن المجيد.

فإنّ تنزلَ مَرة ببعض آيات هذا القرآن لو أنزلت على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، ولتفتت الجبل وتصدَّع، فقلبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم له استعداد خاص وقوة خاصة، لا يساويه فيه غيره، نزَّل الله تعالى عليه هذا القرآن وجمعه له.

قال تعالى: **﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه ثم إنّ علينا بيانه﴾**.

فتكفَّل سبحانه القويُّ المتين، بأن يجمع له القرآن في قلبه على وجه لا ينساه، وأن يُقرئه إيَّاه مرتلاً مجوَّداً، في حين أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أُمِّيٌّ لم يتعلم الكتابة ولا القراءة.

وأنْ يبين له معاني هذا القرآن الكريم وأحكامه وما هنالك، حتى يبين للناس ما نزل إليهم، قال تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾**.

وهذا كله يدلك على قوة هذا القلب الشريف، وقوة استعداده استعداداً خاصاً به، ويدل على سعة القلب الشريف،

فتحمل بذلك أموراً ـ لا يوجد ذلك عند غيره، فأعطاه قوة القلب وثباته.

فإنّ نزول القرآن على القلب أمره عظيم، ويحتاج إلى قوة من الله تعالى وثبات وتحمل، كما يُشير إلى ذلك قوله تعالى: **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾**.

فليتفكر العاقل في قوة قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكمال استعداده، وقوة تحمله لتنزلات القرآن المجيد.

فإنّ تنزلَ مَرة ببعض آيات هذا القرآن لو أنزلت على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، ولتفتت الجبل وتصدَّع، فقلبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم له استعداد خاص وقوة خاصة، لا يساويه فيه غيره، نزَّل الله تعالى عليه هذا القرآن وجمعه له.

قال تعالى: **﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه ثم إنّ علينا بيانه﴾**.

فتكفَّل سبحانه القويُّ المتين، بأن يجمع له القرآن في قلبه على وجه لا ينساه، وأن يُقرئه إيَّاه مرتلاً مجوَّداً، في حين أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أُمِّيٌّ لم يتعلم الكتابة ولا القراءة.

وأنْ يبين له معاني هذا القرآن الكريم وأحكامه وما هنالك، حتى يبين للناس ما نزل إليهم، قال تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾**.

وهذا كله يدلك على قوة هذا القلب الشريف، وقوة استعداده استعداداً خاصاً به، ويدل على سعة القلب الشريف،

ويدلك على طيب القلب الشريف وطهره المحمدي.

فلما كان قلبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم خير القلوب وأذكاها، وأوسعها وأقواها، وأتقاها وأنقاها، وألينها وأرقها، وأوعاها وأيقظها لذلك خُصَّ بنزول هذا القرآن المجيد عليه، كما تفيده إشارة ضمير الخطاب من رب الأرباب في قوله تعالى: **﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذِرين﴾**.

أي: على قلبك خاصة من بين سائر القلوب جميعها.

أمّا أنّ قلبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو خير القلوب، فقد جاء في (مسند) أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (إن الله تعالى نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير القلوب فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون عن دينه.

فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء)[1].

وأمّا أنّ قلبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو أزكى القلوب وأطهرها فقد شُق صدره الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم منذ صغره واستخرج منه حظ الشيطان كما جاء ذلك في صحيح مسلم وغيره.

وقد فَصَّلْت الكلام في الشمائل الشريفة على شق صدره

---

(١) قال في (مجمع الزوائد): رواه أحمد والبزار والطبراني في (الكبير) ورجاله موثقون. اهـ قال عبدالله: المعلوم أنّ الموقوف فيما لا مجال للرأي فيه له حكم المرفوع - فافهم.

الشريف صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم، وتعدد ذلـك، والحكمة فيه؛ فارجع إليه تجد ما ينفعك.

وأمـا سعـة قلبـه الشـريف صلى الله عليــه وعلى آلـه وسلم فيكفيك دليلاً على ذلك أنّه اتسع لجمع هذا القرآن العظيم فيه.

قال تعالى: **﴿إنّ علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتّبـع قرآنـه ثم إنّ علينا بيانه﴾**.

فهو سبحانه تكفل لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَنْ يجمـع له القـرآن في صدره ـ أي: قلبـه الشريفـ ـ لأنّ القلب في الصدر، وأَنْ يقرئه إيّاه على أسلوب خاص دون الأساليب المعروفة التي يُقـرأ فيها كـلام الناس، فـإن للقرآن تـلاوة خاصـة يُعلّمه الله تعالى ذلك ويقرئه بذلك، وإن كـان أمّيّاً لم يقـرأ ولم يكتب صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ويكفيـك دليلاً على قـوة القلب الشريف قـوله تعـالى: **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعـاً من خشية الله﴾** الآية.

فالجبل العظيم الشامـخ الرأس، الـواسع الكبيـر ـ كما يـدل على ذلك التنوين في قوله تعالى: **﴿جبلٍ﴾** ـ أي: عظيم شامـخ، فإن هذا الجبل مع صلابته وضخامته وقوته لا يتحمـل نَزْلـة واحدة قرآنية عليه، وهكذا جميع الجبال لا تقوى على ذلك.

فقلب سيـدنا محمـد صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم الـذي نزل هذا القرآن الكريم عليـه بأسـراره وأنواره، وحـروفه ومعـانيه، وروحه وحقائقـه، ومعارفـه ومفاهيمـه العلوية ـ حقـاً إنّ هذا القلب الشريف هو أوسع القلوب وأقواها.

قال تعالى: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحـاً من أمرنـا ما كنت**

تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنّك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾.

فأفاض من بحر قلبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم على قلوب الذين اتّبعوه وأشعَّ النور في مرايا قلوبهم؛ فصارت مشارق أنواره ومرايا إشعاعه.

ومن تدبر قوله تعالى: ﴿**ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنّك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾ فهم المعنى.

وإذا فهمت المعنى هِمتَ وعذرت عشاقه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما لُمتَ، وما أنكرت وما عبت عليهم.

ويرحم الله تعالى القائل:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

كما وأنَّ قلبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم أتقى القلوب وأسلمها وأنقاها:

روى أبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لا يُبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أنْ أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

وقد جاء في الحديث الذي رواه ابن ماجه بإسناد صحيح عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله: أيّ الناس أفضل؟

قال: «كل مخموم القلب صدوق اللسان».

قالوا: صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هو التقي النقي، لا

إثم فيه ولا بغي، ولا غل ولا حسد».

كما أَنّ قلبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو ألين القلوب وأرقها:

قال تعالى: **﴿فبما رحمة من الله لِنْت لهم ولو كنت فَظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك...﴾** الآية.

فما كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم غليظ القلب، بل كان ليِّناً رقيق القلب، وأحبُّ القلوب إلى الله تعالى أرقها وألينها.

روى الطبراني عن أبي عنبة الخولاني أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إنّ لله تعالى آنيةً من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبُّها إليه ألينها وأرقها».

وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد أعطي يقظة القلب على وجه يقرأ القرآن نائماً ويقظان، فكانت عينه تنام ولكن قلبه يقظان.

جاء في (صحيح) مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «يقول الله تعالى: كلُّ مالٍ نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهم أنْ يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا.

وإنّ الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب.

وقال ـ أي: قال الله تعالى ـ لي إنّما بعثتكَ لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يَغسله الماء، تقرأه نائماً ويقظان». الحديث.

وفي (صحيح) البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها قلت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟.

فقال: «يا عائشة إنّ عيني تنام ولا ينام قلبي» صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وروى البخاري وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: جاءت الملائكة إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو نائم - وفي رواية الترمذي قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، فقال بعضهم: إنه نائم.

وقال بعضهم: إنّ العين نائمة والقلب يقظان.

فقالوا: إنّ لصاحبكم هذا مثلاً.

قال: فاضربوا له مثلاً.

فقالوا: مثله كمثل رجل بنىٰ داراً وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً،

فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة.

ومن لم يُجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة.

فقالوا: أوِّلُوها له يفقهها.

فقال بعضهم: إنه نائم.

وقال بعضهم: إنّ العين نائمة والقلب يقظان.

فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فمن أطاع محمداً صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله تعالى» الحديث.

وروى الدارمي في (سننه) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله كيف علمت أنك نبي حين استنبئت؟

فقال صلى الله عليه وسلم: «يا أبا ذر ـ أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة، فوقع أحدهما على الأرض،وكان الآخر بين السماء والأرض.

فقال أحدهما لصاحبه: أهوَ هو؟ قال: نعم.

قال: فزنه برجل ـ فوزنت به.

ثم قال: فزنه بعشرة ـ فوزنت بهم فرجحتهم.

ثم قال: زنه بمائة ـ فوزنت بهم فرجحتهم.

ثم قال: زنه بألف ـ فوزنت بهم فرجحتهم ـ كأني أنظر إليهم ينتثرون عليَّ من خفة الميزان. فقال أحدهما لصاحبه: لو وزنتهُ بأمته لرجحها».

ورضي الله تعالى عن حسان بن ثابت يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم مادحاً له ومستنجداً به:

يا ركن معتمِد وعصمة لائِذٍ ... وملاذ منتجع وجار مجاور
يا من تخيَّره الإلٓه لخلقه ... وحباه بالخلق الزكيِّ الطاهر
أنت النبيُّ وخير عُصبة آدمٍ ... يا مَنْ يجود كفيض بحر زاخر
ميكال معك وجبرئيل كلاهما ... مدد لنصرك من عزيز قادر

ويرحم الله تعالى القائل:

إليك وإلَّا لا تشد الركائب ... وعنك وإلَّا فالمحدث كاذب
وحبكَ يا خير النبيين مذهبي ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

قوله تعالى: ﴿والقرآن المجيد﴾.

الكلام على ذلك له وجهان:

الأول: المجيد هو المتصف بالمجد.

والمجد هو: علو المقام وشرف الرتبة.

والقرآن الكريم هو مجيد له المجد وعلو المقام على ما سواه؛ **من حيث** إنّه كلام الله تعالى بدأ منه، وصدر عنه، فهو كلامه وصفته سبحانه، **ومن حيث** علو مقامه في الإعجاز القولي، والإعجاز المعنوي، وما جاء به من الأخبار الغيبية، **ومن حيث** إنّه تبيان لكل شيء، وتفصيل لكل شيء، **ومن حيث** إنّ قراءته مضاعفة الثواب على تلاوة غيره، **ومن حيث ومن حيث**..

وهكذا فهو قرآن مجيد في الملأ الأعلى، فإنّه تَشَرَّف به أم الكتاب الأول.

قال تعالى: ﴿**وإنّه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم**﴾.

كما تشرف بكتابته اللوح المحفوظ.

قال تعالى: ﴿**بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ**﴾.

ولذلك أمر الله تعالى الملأ الأدنى أن يُعَظِّموهُ ويمجدوهُ، ويعظموا صُحُفه المكتوب فيها.

وقال تعالى: ﴿**إنّه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون**﴾.

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يمس القرآن إلا طاهر».

وإليك بعض الكلام تفصيلاً وإيضاحاً لما سبق:

أوّلاً: القرآن كلام الله تعالى منه بدأ وإليه يعود، فهو كلامه

منه بدأ صدوراً، وإليه يعود وَصْفاً فهو المتكلم به سبحانه.

وقد تلقفه سيدنا جبريل الأمين عليه السلام عن حضرة الله تعالى ثم ألقاه إلى النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما تلقاه عن الله تعالى.

قال سبحانه: **﴿وإنّك لَتُلَقَّى القرآن من لدن حكيم عليم﴾**.

فتلقى تلاوته نصاً عن الحق بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام.

وأما تنزله إلى أم الكتاب ثم إلى اللوح المحفوظ فهو تنزل كتابي، وهو قول الله تعالى حقاً: **﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾**.

وهو كلامه سبحانه بنص: **﴿وإنْ أَحَدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾** الآية.

فهو صفة من صفاته - أي: كلامه - وليس خَلْقاً من مخلوقاته.

وكيف يُتصور أنْ يكون القرآن مخلوقاً، وقد قال سبحانه: **﴿إنّما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾**.

فالمخلوق محتاج إلى أن يقول الله تعالى له: **﴿كُنْ﴾** حتى يكون، وأما قوله وكلامه سبحانه فإنه صفته، وصفاته ليست مخلوقة، بل هو قديم الذات والأسماء والصفات.

فالقرآن الكريم هو كلامه سبحانه وقوله بنص: **﴿إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾** فكيف يحتاج قوله إلى قول **﴿كُن﴾**؟ هذا تناقض باطل.

فإن قوله: **﴿كن﴾** به التكوين، ولكنه غير محتاج إلى تكوين، بل هو كلامه سبحانه وصفته، فتمجَّد وتنزَّه عن أنْ يكون

كلامه وقوله مخلوقاً، فالقرآن غير مخلوق بل هو قرآن مجيد.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يقول الله تعالى: من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه».

إذاً كلامه غير مخلوق، وكلامه صفته وليس من خلقه.

فما أمجد هذا القرآن، وما أعلى مقامه! إنّه كلام الله تعالى الحميد المجيد، إنه كلام ذو العرش المجيد.

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أُوحي إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها[1] فما تستطيع أنْ تتحركَ حتى يسريَ عنه، ثم تلت رضي الله عنها قوله تعالى: ﴿**إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً**﴾[2].

ثانياً: ومن مجد هذا القرآن الكريم وعلو مقامه أنّه معجز، فقد علا عن رتبة كلام البلغاء والفصحاء، والعارفين والعلماء، والأذكياء والحكماء، فأعجز الخليقة جمعاء بنصوص كلماته، وبمعاني ومعارف سوره، وآياته وأحكامه وتشريعاته، وأنبائه وإخباره عن المغيبات، مما مضى وما هو آت، وتبيانه لكل شيء، وتفصيله لكل شيء.

وصنوف إعجازه؛ ووجوه إعجازه؛ أعجزت البشر عن استقصائها وهذا من جملة إعجازه.

---

(١) الجران هو باطن العنق.

(٢) رواه الإمام أحمد والحاكم وغيرهما.

وقد صنف العلماء الأكابر كتباً في بيان وجوه الإعجاز، وكلٌّ تكلم حسب ما فُتح عليه، وما انتهى فهمه إليه، ولكن القرآن المجيد فوق ذلك كله، فإنّه أعلى من ذلك وأمجد، لأنّه القرآن المجيد الذي تتقاصر العقول والأفهام عن إحاطة العلوم التي جاء بها، وبحار المعارف التي يفيض بها، فما عرفوا إلا قليلاً محدوداً من كثير لا حد له ولا انتهاء.

ويجب أن تَعْرف ذلك حقاً، وتؤمن بذلك يقيناً، ألم تسمع قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما في (سنن) الترمذي: «يقال لصاحب القرآن إقرأ وارق ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها».

وهكذا يقرأ في الجنة ويترقى في المعارف والدرجات إلى حيث لا ينتهي.

فأهل الجنة في الجنة لا يزالون يقرؤون القرآن، ويفتح الله تعالى عليهم من علومه ومعارفه ما لا يعلمونه ولا يعرفونه من قبل، لأنّه القرآن المجيد، كلام الحميد المجيد.

اللهم اجعلنا منهم بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم آمين.

ومِنْ ثمَّ كان أهل القرآن هم أهل الله وخاصته.

روى النسائي وابن ماجه والحاكم بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن لله أهلين من الناس».

قالوا: من هم يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وسلم: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصَّته» اللهم اجعلنا منهم.

الوجه الثاني:

قوله تعالى: ﴿والقرآن المجيد﴾ جملة قسم، فبعدما ذكر سبحانه شرف المنزِل الطيب المبارك، وهو قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم، ذكر النازل عليه وهو القرآن المجيد، جاء بذلك على سبيل القسم، وفي ذلك تنبيه إلى عظمة هذا القرآن ومجده الرفيع.

وقد طُوِيَ الجواب في ضمن الجملة القسمية، بمعنى أنّ الجملة القسمية تتضمن الجواب وتدل عليه.

فإنّ الأقسام الإلّهية قد يأتي بعدها جواب مذكور كقوله تعالى: ﴿والقرآن الحكيم إنّك لمن المرسلين﴾.

وقد يُطوى الجواب في جملة القسم بحيث تدل جملة القسم على الجواب، وذلك يُعرف من سياق الكلام بعدها ـ أي: بعد القسم الإلّهي.

والمعنى أنّه أقسم سبحانه بالقرآن المجيد على حَقِيَّة رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأنّه حقاً رسول الله لا يحتمل غير ذلك، وعلى أنّ ما جاء به من الأخبار عن الآخرة وغيرها فهو حق وحقيقة، لا بدّ من تحققها ووقوعها، يَشهد بذلك كل ذي عقل ورويّة.

ثم ذكر سبحانه الأدلة على حقيقة ذلك بقوله: **﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها﴾؟!!**

فقوله سبحانه بعد القسم: **﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾.**

نظير قوله تعالى: **﴿أكان للناس عجباً أنْ أوحينا إلى رجل منهم أنْ أنْذر الناس﴾.**

وفي هذا بيان إنكارهم كونه رسولاً لأنّه بشر.

وقوله سبحانه بعد ذلك مخبراً عن الكفار: **﴿أئذا مِتْنا وكنا تراباً ذلك رَجْع بعيد﴾** ففي هذا إنكارهم قضية الحشر والآخرة.

فجاء القسم بقوله تعالى: **﴿والقرآن المجيد﴾** يرد عليهم إنكارهم، فيثبت أنَّ سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حقاً، وأن الآخرة هي حق.

أما إثبات أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنّ هذا القرآن المجيد مُعجز، وقد جاء به إلى الناس سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب، فلا يمكن أَنْ يكون من تلقاء نفسه؛ ولا من تلقين من غيره؛ لأنّه معجز، ولا من أخذه عن كتب مَن قبله؛ لأنّه أمّي لم يقرأ ولم يكتب، فهو إذاً حقاً كلام الله تعالى، أنزله عليه، وأمره أن يبلغه للناس - فهو رسول الله حقاً بشهادة مجيئه بهذا القرآن المجيد، لا يحتمل لدى ميزان العقل غير ذلك.

قال الله تعالى: **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾**.

وقد جاء هذا القرآن المجيد المعجز - الذي هو كلام الله تعالى حقاً لا يحتمل أن يكون من كلام البشر - جاء يخبر عن قضية الآخرة، ويقيم الأدلة والحجج على حقيَّة ذلك، وتحقق وقوعها بأدلة عقلية، ومرئية، ونفسية، وآفاقية؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى يؤفكون؟!

﴿بل عجبوا أَنْ جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾.

كان الكفار في الأمم الماضية إذا جاءهم رسول من عند الله

تعالى ينكرون عليه دعواه الرسالة، وكذلك كفار قريش وغيرهم لَمّا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكان إنكارهم قائماً على مزاعم باطلة:

أولاً: دعواهم أنّ رسل الله تعالى يجب أن يكونوا من الملائكة لا من البشر، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: **﴿فقالوا أبشرٌ يهدوننا﴾** الآية.

وقال تعالى مخبراً عن قوم نوح: **﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾** الآية.

وقال تعالى: **﴿قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾**.

ثانياً: زعمت الكفار أنّ رسالة الله تعالى إن كانت تجوز أن يؤتيها للبشر فينبغي أن تنزل على أكابرهم المجرمين.

قال تعالى: **﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾**.

فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾** الآية.

وهكذا كما قالت كفار قريش: **﴿وقال الذين كفروا لولا نزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾**.

ويعنون بذلك أنْ ينزل على عظيم مكة والطائف.

فرد الله تعالى عليهم بقوله: **﴿أهُم يقسمون رحمة ربك**

نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضنا سُخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾.

والمعنى: أن رحمة الله تعالى التي يرحمهم بها في تيسير أسباب معيشتهم وكسبهم خيرات الدنيا وأرزاقها؛ ليست عائدة إلى تدبيرهم؛ بل إلى تدبير الله تعالى وحكمته، فهو يرزق من يشاء، ويبسط لمن يشاء ويقدر، ويرفع الناس درجات في أمور الدنيا ومواهبهم وعقولهم ومداركهم وأفكارهم، فكل واحد يتجه إلى عمل يستحسنه ويهواه، ويكسب منه، وفي ذلك حكمة ارتباط حاجاتهم إلى بعضهم، فكل واحد منهم هو محتاج إلى الآخر، وفي ذلك تدبير وتصرف العليم الحكيم الخبير، ليس موكولاً ذلك إليهم، فكيف بالرحمة الكبرى والنعمة العظمى التي يُتوقف عليها صلاح العالم في الدنيا والآخرة، وهي الرسالة الإلٓهية وإيتاء النبوة، وإنزال الوحي الإلٓهي الذي به سعادة الدنيا والآخرة وصلاحهما، كيف يكون ذلك موكولاً إليهم؟! بل إنّ ذلك راجع أمره إلى الله تعالى وحده، العليم بكل شيء، والعليم بمَنْ هو أهل لذلك، وبمَنْ هو ليس بأهل ذلك.

قال تعالى: **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾**.

وقال تعالى: **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾**.

فهو سبحانه الحكيم في إرساله الرسل، وتخصيصهم بالرسالة دون غيرهم صلوات الله تعالى عليهم.

وقال تعالى: - في إعطائه لسيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ختم الرسالة والنبوة: **﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾**.

فهو سبحانه عليم بعلمه القديم الذي لا أول له أنّ خاتم النبيين لا يصح ولا ينبغي أن يكون أحد من الرسل إلا رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ولذلك كان يقول صلى الله عليه وسلم: «ألا لا رسول ولا نبي بعدي» ـ جاء ذلك في جملة أحاديث متعددة.

فإن قيل: يلزم مما تقدم أنْ لا تتناول رسالة الله تعالى إلى الإنس عالم الجن، فإنّ عالم الجن هو نوع آخر غير عالم الإنس.

فالجواب: أنّه لا يلزم ذلك، بل إنّ رسالة رسل الله تعالى إلى الإنس تتناول عالم الجن، باعتبار أنّ عالم الجن هم كعالم الإنس في حياتهم وموتهم، وتناكحهم وتناسلهم، وحاجتهم إلى الطعام والشراب، والغذاء والهواء والماء، وحاجتهم إلى بعضهم من حيث المعاملات والبيع والشراء، والمبادلات المالية وسائر العقود..

وهم مكلفون بتكاليف شرعية التي كلفت بها الإنس تماماً، كما قال سبحانه: ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يَقُصُّون آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا**﴾ الآيات.

وهم يرون الإنس كما يرى بعضهم بعضاً دون اختلاف، غير أن الإنس يؤنسون أي: يبصَرون ويرى بعضهم بعضاً، أما الجن فهم أخفياء عن الإنس، فإنّ مادة (**جن**) تدل على الخفاء ومنه: ﴿**فلما جَنّ عليه الليل**﴾، ومنه الجنين في بطن أمه فإنه لا يرى، ومنه المِجَنّ يُلبس في الحروب.

وقد أخبرنا الله تعالى أنّ الجن بلغتهم دعوة موسى عليه

السلام قال تعالى: ﴿**وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم**﴾.

ففي هذا دليل صريح على أن رسالة سيدنا موسى عليه السلام بلغتهم، ثم لما بَعث الله تعالى سيدنا محمداًصلى الله عليه وعلى آله وسلم جاؤوا يستمعون القرآن النازل عليه، وآمنوا برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا كما قال سبحانه: ﴿**قل أوحي إلي أنّه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً**..﴾ الآيات الكريمة.

وقد كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يذهب إليهم فيبلغهم، ويجتمع بهم، وكانوا يأتون مجالسه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما ذَكرت ذلك كله مفصلاً في كتاب: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن) فارجع إليه.

فكان كلُّ رسول يُبعث إلى قومه خاصة، وأمة معينة من الإنس وأمة معينة من الجن، وأما سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فرسالته عامة إلى جميع طبقات الإنس، وجميع طبقات الجن، كما جاء ذلك في خصائصه التي خَصه الله تعالى بها صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما بينت ذلك في البحث حول عالم الجن.

وإنهم على طبقات: فمنهم المقربون، ومنهم المقتصدون، ومنهم الظالم لنفسه، ومنهم الكافر - كما هو في عالم الإنس..

قوله تعالى: ﴿**ءإذا مِتْنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد**﴾.

هذا هو الأمر الثاني الذي أنكروه وكذبوا به، وقد أقام الله تعالى الحجج الدامغة لشبهاتهم، ووجوه شكوكهم، فإنّهم أنكروا الحشر والإعادة، زعماً منهم أنّ إعادتها غير ممكنة؛ لموانع متعددة:

الأول: أنّ اختلاط أجزاء الأموات بأجزاء الأرض يؤدي ذلك إلى عدم التميز عن أجزاء الأرض، وإلى عدم تميز شخص عن شخص آخر، ولهذا قالوا: ﴿**ءَإذا مِتْنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد**﴾.

الثاني: أنّ القدرة عاجزة عن ذلك، فكيف يقع ذلك، ولذا قالوا: ﴿**مَنْ يُحيي العظام وهي رميم**﴾.

الثالث: زعمهم أنّ الإعادة أمر لا فائدة منه ولا حكمة فيه، ولذلك قالوا: ﴿**وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيىٰ وما يُهلكنا إلا الدهر**﴾ الآية.

- أي: ليس هُناك حشر ولا نشر، ولا حكمة في ذلك، ولا رجعة هنالك.

وقد ردَّ الله تعالى عليهم مزاعمهم الباطلة، وأقام البراهين على بطلان تلك الشبه الثلاثة وغيرها، وأثبت وقوع الواقعة، وحقِيَّة الحاقة، وقرع القارعة، وذلك يوم القيامة؛ يوم يقوم الناس لرب العالمين.

أما الأول: وهو قولهم أن الأجزاء الميتة تصير تراباً وتختلط بتراب الأرض، فكيف يُعلم هذا من ذلك، ويتميز هذا عن هذا.

فقد رد الله تعالى ذلك عليهم بأنّ علمه محيط بتلك الأجزاء كلها مهما تفرَّقت، وهو يعلم أجزاء كل ميت ويميزها عن الأرض، وعن بعضها، فإنّ الذي خلقها هو عليم بها وما تصير إليه، وهو محيط بها وحافظها عنده في عالم غيبي عن هذا العالم.

قال تعالى: ﴿**قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ**﴾.

- أي: يحفظ عليهم أجزاءهم فلا يفوت جزء منهم، ويَبقى في الأرض، ولا يصير جزء أحدهم إلى غيره، بل هو العليم بذلك، والحفيظ لذلك كله.

كما قال تعالى: ﴿**وضربَ لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يُحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرة وهو بكل خلق عليم**﴾.

فأثبت علمه المحيط بجميع خلقه، وما خلقه، وما ينتهي إليه خلقه.

وقال تعالى: ﴿**وإنَّ الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إنّ ربك هو الخلاّق العليم**﴾.

ولا ريب عند العاقل أنّ خالق الشيء هو أعلم بأجزاء ذلك الشيء قبل وجوده، وبعد إيجاده، وبعد فنائه وتفرقه، علمه بذلك كله على حد سواء؛ علماً قديماً لا أول له ولا انتهاء.

الثاني: أمّا قولهم: إن القدرة عاجزة عن ذلك.

فرد الله تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿**قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرة**﴾..

فالذي أنشأها أوّل مرة لا مِنْ شيء قادر على أَنْ يُحييها بعد أنْ صارت شيئاً ثُمّ أماتها، فهو يُعيدها كما بدأها.

فالقادر على البدء قادر على الإعادة.

قال تعالى: ﴿**وهو الذي يَبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾ الآية.

وهـذه أدلـة وبـراهين نفسيـة ـ أي: أدلـة من أنفسهـم وتتعلق بهم، تُثبت حقيقة الإعادة، ثم ذكـر الأدلة الآفاقـية المحيـطة بهم السماوية والأرضية وما عليها:

قـال تعالى: ﴿**أَوَلَيس الـذي خلق السموات والأرض بقـادر على أَنْ يخلق مثلهم بَلَىٰ وهو الخلّاق العليم**﴾.

كما أنه سبحانه ذكر في هذه السورة ﴿قٓ﴾ أدلة نفسيـة وأدلة آفاقية: سماوية وأرضية؛ على أنّه قـادر على الإعادة بـلا ريب، وأن الأمر هو حق وواضح لدى كل عاقل ـ فقال سبحانه: ﴿**بـل كذبـوا بـالحق لما جـاءهم فهم في أمر مـريـج أفلم ينـظروا إلى السمـاء فوقهم كيف بنيناهـا وزيناهـا وما لهـا من فروج والأرض مـددناهـا وألقينا فيها رواسي وأنبتنـا فيها من كـل زوج بهيج تبصـرة وذكرى لكل عبد منيب**﴾.

والمعنى: أنّهم كـذبوا بنبـوة سيـدنـا محمـد صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم، وبالحق الـذي جاءهم بـه وهو القـرآن المجيد، مـع أنّ نبوتـه صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم ثـابتـة بـالمعجـزات المرئية، والبينات العقلية، ولكنّهم لعنادهم كذبو بالحق لما جاءهم دون أَنْ يتفكروا أو يتعقلوا، بل لأول وهلة أنكروا وكذبـوا: كِبْراً وعنـاداً، ولو أنّهم أنصفوا لاعترفوا بالحق.

﴿**فهم في أمر مريج**﴾ مختلط ومضطرب.

والمرج: الخلط.

فـتـارة يقـولـون عنـه: إنـه صلى الله عليـه وعلى آلـــه وسلم ساحر، ومرة يقولون: شاعر، ومرة يقولون: كـاهن، وتارة يتهمـونه بـالجنـون، فـأقـوالهم مختلفـة ومختلطة ومتنـاقضـة، هي تنقض بعضها.

يقال: مرجت عهودهم إذا فسدت واختلطت واضطربت.

قال في (النهاية): والمرج: الخلط، وأشار إلى الحديث الذي رواه ابن ماجه وغيره عن ابن عَمْرو بن العاص أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «كيف بكم بزمان يوشك أن يأتي يُغربل الناس فيه غربلة، ويبقى حُثالة من الناس قد مرجت[1] عهودهم وأماناتهم، واختلفوا وكانوا هكذا» ـ وشبّك بين أصابعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم قال: «تأخذون ما تعرفون، وتدعون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم» ـ أي: من أهلكم وذويكم ـ «وتذرون أمر عامتكم» ـ أي: تتركون أمور عامة الناس لاتباعهم أهواءهم المختلفة وآرائهم الفاسدة.

ورواه الترمذي ـ وصححه ـ قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعبدالله: «كيف أنتَ إذا بقيتَ في حُثالة من الناس، مرجت عهودهم وأماناتهم» وشبك بين أصابعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قال: فبِمَ تأمرني يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «عليك بما تعرف، ودَعْ ما تُنكر، وعليك بخاصة نفسك، وإيّاك وعوامَّهم».

وفي رواية: «إلزم بيتك» الحديث.

ومن هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي

---

(١) قال في (المختار): مَرج الأمر والدين: اختلط، وبابه طرب، من الهرج والمرج، وأما مَرّج بفتح الراء فهو مُتعد، ومنه قوله تعالى: ﴿**مرج البحرين يلتقيان**﴾ وفي بعض النسخ: مَرَجت بفتح الراء، فضمير الفاعل يعود إلى الحثالة.

عن أبي ثعلبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إيتمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شُحّاً مطاعاً، وهوىً متبّعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، فعليك بنفسك، ودع عنك أمر العوامّ» الحديث.

وفي هذه الأحاديث الشريفة تحذير للمسلم أَنْ يقع في هذه المهلكات، التي يقع فيها الناس في آخر الزمان؛ وهي: الشحّ، واتباع الهوى، وحب الدنيا وإيثارها على الدين، والإعجاب بالرأي حتى إنّه ليحتال على أحكام الشريعة لينفذ مآربه تلك، ويقدم اتباع هواه على حكم الله تعالى، فهو من الهالكين، أعماه حُبّ الدنيا وحطامها عن كل شيء.

وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «حب الدنيا رأس كل خطيئة، وحبك الشيء يعمي ويصمّ».

فلا تغرنك الدنيا، وتغفل عن الله تعالى؛ وتنسى الآخرة.

ورضي الله تعالى عن الإمام الشافعي القائل:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل — خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة — ولا أنّ ما تُخفي عليه يغيب
غفلنا لعمر الله حتى تراكمت — علينا ذنوب بعدهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى — ويأذن في توباتنا فنتوب

وكان الإمام أحمد رضي الله عنه ينشد البيتين الأولين.

قوله تعالى: **﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾**.

في هذه الآيات الكريمة يُقيم الله تعالى الحجة على حَقِّيَّة القيامة، وعلى قدرته على إقامتها، فإنّ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، كما بين ذلك سبحانه بقوله: **﴿لخلق**

السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾.

وقال تعالى: ﴿ءأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ الآيات.

فذكر ذلك ثم أتبعه بذكر الطامة الكبرى وهي القيامة الكبرى.

فإذا كان خلق السموات والأرض أكبر وأشد، فيقال إنّ إعادة الإنس والجن إمّا أنْ تكون مثل البداءة، فالذي قَدَر على البداءة هو يقدر على الإعادة من باب أولى، وإن كانت الإعادة أكبر وأشدّ فالله تعالى قَدَر على ما هو أكبر خلقاً من الإنسان وأشد؛ وهو خلق السموات والأرض وما فيهما، فالنتيجة حقاً وعقلاً أنّ الله تعالى قادر على الإعادة لا محالة.

فهذه السموات فوقهم ينظرون إليها، فليتفكروا كيف بناها الله تعالى بقدرته، وأقامها وأتمها بحكمته، وزينها بالكواكب والشمس والقمر، بتدبيره وإرادته رتّب سير تلك الكواكب في أفلاكها المعينة لها، فهي تجري بنظام وإحكام دقيق، وتقدير يعجز عنه الخلق والإنس والجن ـ ذلك تقدير العزيز العليم.

وهكذا بناء السماء مُحكم لا فروج فيه ولا شقوق، سقف محفوظ، مُزين بالسرج والكواكب والبروج.

كما قال تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً﴾ ـ وفي قراءة متواترة: ﴿سُرجاً﴾ ـ ﴿وقمراً منيراً﴾.

وقد تكلمت بعض الكلام على عالم الكواكب في كتاب:

(هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان).

قوله تعالى: ﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج**﴾.

خلق سبحانه الأرض ومَدّها ووسعها، وجعل فيها سهولاً ممهَّدة للسير عليها، وزرعها، والجلوس والنوم عليها، فلم يجعلها كلها جِبَالاً وأودية، بل هيّأها لهذا الإنسان، الذي كرمه الله تعالى، فليعرف كرامته، وليؤد شُكر نعم الله تعالى عليه المحيطة به، والقائمة فيه.

فكيف يكفر بربه؟ وبعبادة ربه؟ ويكفر نعمة ربه؟! وهو سبحانه أحاط عباده برعاية تربيته؛ تحت سقف سمائه، وفوق أرضه، يَمدهم بالهواء والماء، وأنواع الغذاء، وجميع ما يحتاجون إليه.

وألقى فيها الجبال، وفيها المعادن المتنوعة، وجعل الجبال رواسي للأرض حتى لا تميد ولا تضطرب، كما بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم صاحب البيان عن القرآن:

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لما خلق الله الأرض جعلتْ تميد وتتكفّأ، فأرساها بالجبال فاستقرَّتْ، فتعجب الملائكة من شِدّة الجبال.

فقالت الملائكة: يا ربنا هل خلقتَ خلقاً أشد من الجبال؟

قال: نعم الحديد.

قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الحديد؟

قال: نعم النار.

قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من النار؟

قال: الماء.

قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الماء؟

قال: نعم الريح.

قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الريح؟

قال: نعم ابن آدم، إذا تصدَّق بصدقة بيمينه فأخفاها عن شماله» رواه الترمذي والإمام أحمد.

فانظر واعتبر في قوة إيمان المؤمن الذي يحمل صاحبه على الصدق مع الله تعالى، والإخلاص في العمل لله تعالى، ويكبح دواعي نفسه، فيتصدق بمال محبوب له قد جمعه، ويبغي بذلك وجه الله، مخلصاً لله تعالى، دون أن يكون هناك رياء ولا سمعة، بل صدقة خفية لا تعلمها شماله لإخفائها.

قال تعالى: **﴿إنْ تُبدوا الصدقات فَنِعِمَّا هي وإنْ تُخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئآتكم والله بما تعملون خبير﴾**.

فالجبال عالم كبير، له أحكام خاصة غير عالم الأرض، وله من الخصائص المودعة فيه خاصة، وقد جعل الله تعالى لها ملائكة خاصة بتدبيرها والتصرف فيها بإذن الله تعالى، كما جاء في حديث يوم الطائف:

يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فأظلتني سحابة فإذا فيها ملك فسلّم علي وقال لي: يا محمد أنا مَلَك الجبال، وقد أرسلني الله تعالى إليك لتأمرني بما شئتَ؛ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين..»[1] الحديث.

---

(١) وقد ذكرته بتمامه في كتاب: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام).

فالله تعالى الذي خلق السموات والأرض؛ والجبال وشدتها؛ لهو قادر على أنْ يعيد خلق الإنسان كما بدأه.

ولذلك أقام الله تعالى الحجة على قدرته على الحشر والإعادة بذكر خلق السموات والأرض والجبال.

وهذه الآيات في سورة الغاشية بعدما ذكر فيها أهل النار وذكر أهل الجنة قال تعالى: - في الحجة على قدرته - ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تَبصرة وذكرى لكل عبد منيب**﴾.

والمعنى: أنبتنا فيها من كل صنف من أصناف الزروع والأشجار، ما هو بهيج المنظر حسنه، يسر الناظر إليه، فيتبصر ويعقل، ويتفكر فيه فيتذكر، وينتج له عند ذلك العلم القاطع، والبرهان الساطع، أنّ الذي خلق ذلك وأبدعه، وأحسنه وجَمَّله، هو الله رب العالمين، العليم القدير، الحكيم الخبير، فَيُنيب إلى الله تعالى، ويرجع إليه قولاً وعملاً، وقلباً وخلقاً، ويرجع بذلك عما لا يحبه سبحانه إلى ما يحبه ويرضاه.

فالإنابة هي: عُكوف القلب على الله عز وجل، وعلى محبته وذكره بالإجلال والتعظيم، وهي تقتضي عكوف الجوارح على طاعته مع الإخلاص والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والسير على هديه صلى الله عليه وسلم، وعدم الإنحراف عنه.

فإنّ خير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم إمام الهداة والمهتدين.

﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾.

الكلام على هذه الآية له وجوه متعددة:

الأول: في هذه الآية وما يليها يَتبين للعاقل أنّ الله تعالى رب العالمين، دعا عباده إلى معرفته والإيمان به، والإيمان بما جاء عنه من طريقين:

أحدهما: النظر في مخلوقاته ومصنوعاته الكونية.

الثاني: التفكر والتذكر والتدبر في آياته القرآنية.

فتلك آياته المشهودة بالعيان؛ وهذه آياته المعقولة الثابتة بالبرهان.

فَمِن الأول: إخباره سبحانه بقوله: **﴿إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾**.

وأمثال هذه الآية كثير.

ومن الثاني قوله تعالى: **﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾**، وقوله سبحانه: **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾**، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

فأما المخلوقات فإنها مفعولات دالة على فِعْل، والأفعال دالة على الصفات، فإنّ الفعل يدل على فاعله، وهو وجود الفاعل وقدرته، وإرادته وعلمه، لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم؛ أو موجود ليس له قدرة ولا حياة ولا علم ولا إرادة.

فتخصيص المخلوقات بأوصافها، وآثارها المختلفة المتنوعة؛ دال على إرادة خالقها وسعة علمه، وسعة حكمته، وعظمة قدرته، فإنّ ذلك دليل قاطع على صفاته سبحانه، وصدق ما أخبر به رسله عنه.

فالمخلوقات والمصنوعات شاهدة تُصدق الآيات المسموعات التي هي كلماته سبحانه وآياته القرآنية.

قال تعالى: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنَّه الحق﴾**.

وقال تعالى: **﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربّك بغافل عما تعملون﴾**.

فجميع ذلك يدل على أنّه سبحانه الحق، وأنّ كلامه حق، وأنّ رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حق.

الوجه الثاني: قوله تعالى: **﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾**.

في هذه الآية الكريمة ذكر قوة الفاعلية وحسن القابلية، وذكر الهدي النازل من عند الله تعالى، والثناء على قابليه، واستقبالهم له وتقبلهم إياه، وعدم اعتراضهم عليه عناداً وكبراً، بل يتقبلون الذكرى ويرجعون إلى الحق.

وبيان ذلك: أنّ الإنابة إلى الله تعالى وهي الرجوع إليه قلباً وعقلاً، وسمعاً وبصراً، وعملاً وقولاً ومعاملة، فمن حصل له مقام الإنابة نال كل خير، وحصل على سعادة الدنيا والآخرة، وبذلك يكون قد اقتحم العقبات الثلاثة، وذلك لأنّ أصول الموانع التي تصرف الإنسان عن قبول الحق وما فيه الخير والسعادة، ترجع إلى ثلاثة أسباب:

١ ـ الكبر فإنه هو الذي صيّر إبليس إلى ما صار إليه.

٢ ـ والحرص على الدنيا ولذائذ العيش وحطامها.

٣ ـ الحسد وهو الذي جرأ قابيل على قتل أخيه هابيل.

فمن تَوَقَّىٰ هذه الثلاثة وُقيَ الشر كله.

فالكفر سببه من الكبر، والمعاصي سببها من الحرص.

والبغي والظلم سببه الحسد.

فمن أناب إلى الله تعالى صادقاً نال كل خير، واستقبله وتلقاه، لأنّه بغيته ومناه.

وأما صاحب الكِبر فإنّ كبره يصده عن قبول الحق، بل يحمله على الإعراض عن الحق، وجَعْله وراءه ظهريا، فإنّه لا يريد أن يستقبله مخافة أن يتقبله.

قال تعالى: ﴿**إنّ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إنْ في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنّه هو السميع البصير**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وإنْ يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً**﴾.

وقال تعالى: - في إبليس - ﴿**أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾.

وفي هذا تحذير من صفات إبليس التي صيَّرته إلى بئس المصير.

فالإباء والكبر يُبعدان الإنسان عن الإنابة والرجوع إلى الله تعالى، وقبول الحق لأنّه الحق من عند رب العالمين.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿**تبصرة وذكرى لكل عبد منيب**﴾.

هذه الآية الكريمة لها نظائر وأشباه في ذكر الفاعلية والقابلية:

قال سبحانه: ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾.

ففاعلية هَدْي القرآن قوية مؤثرة، ولكن إذا لاقت موضعها، وهي القلوب المقبلة والقابلة للهدى والإيمان، متطلعة إليه، ليس فيها كبر ولا حسد ولا ولا... من الموانع والدعاوي الباطلة.

قال تعالى في وصف القرآن: ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان**﴾.

ففي هذه الآية ذكر سبحانه أنّ القرآن هدىً للناس كلهم، مع البيان والبينات، والفارق بين الحق الذي جاء به والباطل المخالف له.

وقوله تعالى: ﴿**هدى للمتقين**﴾ ذكر الموضع القابل أيضاً، فلا منافاة.

فَسَل الله تعالى أنْ يجعل فيك القابلية للحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومن دعائه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اللهم ألِّفْ على الخيرِ قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، ونجِّنا من الظلمات إلى النور، وجَنِّبنا الفواحش والفتن ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، واجعلنا قابليها، وأتمَّها علينا، وتُبْ علينا إنّك أنت التواب الرحيم» رواه الطبراني والحاكم وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿**ونزَّلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جناتٍ وحبَّ الحصيد والنخل باسقاتٍ لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج**﴾.

الكلام على الآية له وجوه:

الوجه الأول:

بعد أنْ دعا الله تعالى العباد إلى النظر والتفكر في بناء السماء، ومد الأرض، وإرساء الجبال، وإنبات النباتات والزروع والأشجار، فبعد هذا دعاهم إلى النظر والتفكر في مادة أرزاقهم وأقواتهم؛ وملابسهم ومراكبهم؛ ومرافق حياتهم؛ وهو الماء الذي أنزله من السماء، وبارك فيه حتى أنبت به سبحانه جنات مختلفة الثمار، ومتنوعة الفواكه، شكلاً وطعماً وصورة وهيئة ووقتاً، مع اختلاف منافعها، وتنوع أجناسها، كما أنبت سبحانه بماء السماء الحبوب كلها، على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها، ثم أفرد سبحانه ذكر النخل مُمتناً بهذه النعمة لما فيه من العجائب وكثرة المنافع، وتميزه عن بقية الأشجار بخصائص خصه الله تعالى بها - وبيان هذا يحتاج إلى كلام طويل ولكنه لا يخفى على من أراد الاطلاع على ذلك.

ثم ذكر سبحانه تعهده برزق العباد، وتدبير أقواتهم، وذكَّرهم بنعمه لعلهم يشكرونه على ذلك، فإنّه هو ربهم ومربيهم، وممدهم ومغذيهم، فجعل ذلك رزقاً للعباد، فإنّهم عباده وهو ملكهم ومالكهم، فهم يعيشون تحت سقف سمائه، وعلى وجه الأرض التي مهدها لهم، ويمدهم بطعامهم وشرابهم ورزقهم وغذائهم، فليذكروا رحمته، وليشكروا نعمته، وليتمسكوا بشريعته التي فيها صلاح دنياهم وآخرتهم.

الوجه الثاني:

قوله سبحانه: ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾.

وفي هذا دليل آخر على قدرة الله تعالى على الإعادة، ويبين للمنكرين أنّ إعادة الأموات وحشرهم بعدما صاروا تُراباً هذا

له نظائر وأشباه مشهودة بالعيان أمامهم، وذلك أنّه سبحانه أنبت من هذه الحبة أو تلك النواة الدفينة في بطن الأرض أنبت أصنافاً من الزروع والأشجار والثمار، وهذا دليل ظاهر يُبصره أهل البصائر، ويستدلون به على إثبات البعث، وكيفية الإعادة لهذا الجسم الذي تحتفظ الأرض بأجزائه مهما تفرقت وتبددت وتباعدت، ومن تلك الأجزاء الدفينة يُنشىء الله تعالى النشأة الآخرة.

ولذلك قال سبحانه: ﴿**كذلك الخروج**﴾ - أي: مثل هذا الإخراج المشهود المعاين أمامكم: الفواكه والثمار والحبوب، كذلك يُخرجكم من الأرض بعدما دُفنتم فيها.

قال تعالى: ﴿**والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً**﴾.

وفي (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما بين النفختين أربعون».

قيل لأبي هريرة رضي الله عنه: أربعون يوماً؟ قال: أبيتُ[1].

قيل: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ.

قيل: أربعون سنة؟ قال: أبيت،

قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ثُم يُنزل الله تعالى من السماء ماء فينبتون كما تنبت البقل، وليس شيء من الإنسان[2] إلا يبلى إلاّ عظم واحد وهو عَجْب الذنب، ومنه يُركَّب الخلق يوم القيامة».

---

(١) أي: لا أجيب - أبيت الجواب عن ذلك.

(٢) لا تنس أنّ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام لا تبلى أجسادهم كما ثبت في الأحاديث؛ وكذلك قد يُكرم الله تعالى بعض الأولياء بهذا، فلا تبلى

قال الحافظ المنذري: ولمسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً، منه يُركَّب الخلق يوم القيامة».

قالوا: أيُّ عظم هو يا رسول الله؟

قال: «عجب الذنب».

قال المنذري: ورواه مالك والنسائي باختصار؛ قال: «كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب، منه خُلق ومنه يركّب».

قال المنذري: عَجْب الذنب بفتح العين وإسكان الجيم بعدها باء أو ميم، وهو العظم الحديد - أي: القوي - يكون في أسفل الصلب. اهـ.

فمن ذلك العظم وهو عجب الذنب الصغير الحجم يركب الله تعالى الإنسان ويعيده، ويخرجه تارة أخرى.

قوله تعالى: ﴿**كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تُبَّع كلٌّ كذَّب الرسل فحقَّ وعيد**﴾.

يُبين الله تعالى في هذه الآيات الكريمة أنَّ تكذيب الرسل وإنكار المعاد ذلك عادة كل جبار عنيد، يكذب بالحق بعدما تبين، ويُنكر الواقع بعدما اتضح، ومنهم قوم نوح ومَن بعدهم من الأمم المذكورة.

فلا فائدة في الجدل مع الجبار العنيد، فإنّه لا يُستخرج منه العناد إلا بقوة رب العباد، وأخذه بالعذاب والعقاب، ومن ثم قال

= أجسادهم، كما بَيَّنْت ذلك مُفصلاً في كتاب: (الإيمان بعوالم الآخرة) مع الأدلة، فهم مستثنون من هذا العموم.

تعالى: ﴿كل كَذَّب الرسل فحق وعيد﴾.

وفي هذا تسلية لرسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإنّه كذبه المشركون وكذبوا بما جاء به من الحق الواضح، وأنكروا عليه قضية المعاد، وقد أتاهم بالبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة، والحجة الدامغة، والحكمة البالغة: ﴿حكمة بالغة فما تغن النذر﴾ إذاً لا بد لهم من العذاب والعقاب.

وفي هذه الآيات الكريمة يُقيم الله تعالى الأدلة القاطعة على حقية وجوده ووحدانيته، وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم.

وذلك أنه سبحانه قد أرسل في الأمم الماضية رسلاً، فأرسل نوحاً إلى قومه، وهوداً إلى عاد، وصالحاً إلى ثمود، وأرسل لوطاً إلى قومه، وأرسل موسى إلى فرعون وبني إسرائيل ـ وهذا أمر ثابت في الكتب السابقة كلّها، ومعلوم عند العرب والعجم، وثابت في التواريخ.

وجميع تلك الرسل جاؤوا قومهم بالبينات وبالمعجزات، وأقاموا لهم الحجج والأدلة، فلما عاندوا وعارضوا واستمروا، حَقّ عليهم وعيد العقاب فأخذهم بأنواع العذاب.

ثم أرسل الله تعالى هذا الرسول الأكرم سيدنا محمداًصلى الله عليه وعلى آله وسلم، فجاء ببينات وآيات ومعجزات؛ هي أعظم بكثير مما جاء به أولئك الرسل الكرام، وجاء بكتاب من عند الله تعالى معجز للأولين والآخرين، فهو رسول الله حقاً لا يَحتمل غير ذلك، كما قال سبحانه: ﴿يس والقرآن الحكيم إنّك لَمِن المرسلين﴾.

فمن آمن به فقد آمن بجميع الرسل، ومَن كفر به فقد كفر

بجميع الرسل قبله، لأنهم بَشروا به، وأخبروا أقوامهم بظهوره، وجاء ذكره في كتبهم.

ثانياً: كما أنّ أولئك الأمم الماضية لما كفر كثير منهم برسلهم استحقوا العذاب، وأُخذوا بالعقاب، كذلك فلْيَعلم الكفار برسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم سوف ينتقم الله تعالى منهم وينصره عليهم لا محالة، وينشر دينه، وتَبلغ رسالته المشارق والمغارب ـ وكان الأمر كذلك، والحمد لله.

ثالثاً: في الآيات الكريمة تقرير قضية الإعادة والحشر بعد الموت الذي قد استبعده المشركون، فإنّ الله تعالى له القدرة التي لا نهاية لها، ولا يعجزه شيء، فقد أرسل أنواعاً من العذاب على الكفار السابقين، وظهرت قدرته عليهم، فأخذ قوم نوح بالطوفان، وأرسل الريح على قوم عاد، وأخذ قوم ثمود بالصيحة، وفرعون بالغرق في البحر الذي نجىٰ الله تعالى منه موسى وقومه.

وهكذا فقدرته سبحانه ثابتة وظاهرة في الأكوان، فكيف يستبعدون عليه الإعادة والحشر بعد الموت؟ وقد أراهم من آيات القدرة ما يثبت ذلك.

رابعاً: في الآيات الكريمة تهديد للكفار والمنكرين رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والمكذبين بكتابه، فليحذروا أَنْ يأخذهم الله تعالى بالعذاب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿**أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد**﴾.

العيّ بالأمر هو العجز عنه، يُقال لِكلٍّ من عجز عن شيء عيي به، وعيي فلان بالأمر إذا عجز.

قال الشاعر:

عيّـوا بـأمــرهم كمــا		عييت ببيضتها الحمامة

قال ابن عباس رضي الله عنهمـا: والمعنى أفعجزنـا بالخلق الأول. اهـ؟!.

والفـاء للعطف على مقـدر محذوف، ينبيء عنـه العي وهـو القصـد، كأنـه قيل: أقصـدنا وأردنـا الخلق الأول وهو بـدء الخلق فعجزنا عنـه حتى يُتوهم عجـزنا عن الإعـادة والخلق الجديـد؟ بل هم في التباس من خلق جديد.

وفي هـذه الآية الكـريمة إقـامة الـدليل النفسي بعـد الدليـل الآفاقي على أنّه قادر على الإعادة لهذا الخلق، وذلك أنّه لما بـدأ هذا الخلق لم يَعيَ، فكيف يعجز عن إعادته ثانياً؟!.

فـإن كانـوا قد عمـوا وصموا عن الأدلـة السـابقـة السمـاويـة والأرضية المرئية فلينظروا في خلق أنفسهم، وليتفكـروا في نشأتهم الحـاضرة التي هم فيهـا، فـإنّهم الآن يتقلبـون في خلق جـديـد، يتجدد عليهم في كل آن، ولكنهم يظنون أنّهم هم في كـل حال، وأنهم لا يَعتريهم تبديـل ولا تغيير، ولا تـطوير ولا تخليق جـديد، ولكنّ الأمر في الواقع ليس بذاك، بل كلٌّ في كل حين تفنى منهم أجزاء خلقية، وجـواهر فـردية، ويَخلق الله تعـالى غيرهـا، ويُجدد عليهم وجودها ويُمدهم.. وهكذا وهكذا.

وهذا أمر ظاهر، فإن الإنسان خلقه الله تعالى أولاً نطفة، ثم علقـة، ثم مضغة، ثم جنينـاً، ثم طفلاً، ثم مـراهقاً، ثم شـاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هرماً فانياً، ومن البـديهي لم ينتقل من طـور إلى طور دفعة واحدة، بل مَرّت عليه لحـظات وساعـات فنيت منه أجزاء وتجددت فيه أجزاء أخرى شيئاً فشيئاً حتى انتقل إلى الـطور الثاني وهكذا.

لكن لم يتبين للإنسان ذلك حتى مضت مدة طويلة، فبان الأمر وظهر فيه التطوير والتبديل والتحويل.

قال الله تعالى: ﴿**ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً**﴾.

وقال سبحانه: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنّكم بعد ذلك لميّتون ثم إنّكم يوم القيامة تبعثون**﴾.

وتأمل في قوله تعالى: ﴿**ثم**﴾ بين كل طور وطور، فإنّها للتراخي كما هو معلوم.

ففي الإنتقال من طور إلى طور آخر تبديلات وتحويلات بخلقه سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿**يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق**﴾ ولا فرق بين تلك الأطوار التي يطورهم سبحانه فيها ويقلبهم فيها بالنسبة لقدرته تعالى، ولا يُعجزه شيء من ذلك، بل جميع ذلك هو عليه يسير، وهو على جميع ذلك وغير ذلك قدير جل وعلا.

روى الشيخان عن أبي سعيد رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إن رجلاً ممن كان قبلكم رغسه[1] مالاً فقال لبنيه: ـ لما حضره أي: الموت ـ أيُّ أبٍ كنتُ لكم؟

قالوا: خير أب.

---

(١) قال المنذري: رغسه بفتح الراء والغين المعجمة بعدهما سين مهملة معناه: أكثر له ماله وبارك فيه.

قال لهم: إنّي لم أعمل خيرا قط، فإذا متّ فاحرقـوني، ثم اسحقوني، ثم ذَرُّوني في ريح عاصف ـ ففعلوا.

فجمعه الله تعالى فقال: ما حملك على هذا؟

فقال: مخافتك ـ فتلقاه برحمته».

وعن أبـي هـريـرة رضي الله عنـه، أنّ النبي صلى الله عليـه وعلى آله وسلم قال: «كانٍ رجل يُسـرف على نفسه، فلمـا حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مِتُّ فاحرقوني ثم اطحنوني ثم ذرّوني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليُعَذِّبني عذاباً ما عذبه أحداً.

فلما مات فعل به ذلك.

فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيـك منه؛ ففعلت، فـإذا هو قائم.

فقال: ما حملكَ على ما صنعت؟

قال: خشيتُك يا رب أو قال: مخافتك ـ فغفر له».

وفي روايـة أنّ رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم قـال: «قال رجـل لم يَعمل حسنـة قط لأهله: إذا مت فحرّقـوه ثم ذروه نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه لَيُعَذِّبُه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين.

فلما مات الرجل فعلوا به ما أمرهم.

فأمر الله البرِ فجمع ما فيه، وأمر البحر أَنْ يجمع ما فيه، ثم قـال له: لِمَ فعلتَ هـذا؟ قال: من خشيتـك يـا رب وأنت أعلم ـ فغفر الله تعالى له».

قال المنذري: رواه الشيخان ومالك والنسائي نحوه.

قوله تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾.

يبين الله تعالى في سياق البرهان على عظمة قدرته، وبديع حكمته، خلقه للإنسان العجيب الشأن، ذي اللسان المفصح عما في الجَنَان، وعما في الأكوان، وهو ذو البَنان المختلفة في التخطيط والصورة، والتي خصها الخلاق العليم بخصائص لا توجد في سائر الأعضاء والأركان.

وقد خلقه الله تعالى في أحسن قوام، وأكمل هندام، وحَسَّن صورته، وجمل هيئته، فكان هذا الإنسان أعظم آية تدل على قدرته سبحانه وبديع حكمته، وسعة علمه ورحمته - وأيّ دليل أقرب إلى الإنسان وأوضح عنده، وأظهر لديه يُعرفه بربه، وعظمة ربوبيته، وحقيَّة ألوهيته، ووجوب عبادته؛ أيّ دليل أقرب من تركيب صورته الإنسانية الآدمية، بأعضائها، وقواها، وصفاتها، ومزاجها، وأخلاقها، وما فيها من اللحم والعظم، والأعصاب والرباطات التي شَد الله تعالى زمامها، كما قال تعالى: ﴿**نحن خلقناهم وشددنا أسرهم**﴾.

وما فيه من المنافذ المدركة، والعلوم، والإرادات، والصفات، كل ذلك من نطفة ماء، كما قال تعالى: ﴿**إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً**﴾.

فيجب على العاقل أَنْ يُفكر في خلق نفسه، ومنها يعرف عظمة ربه، وعزة ربوبيته، وحقِّيَّة ألوهيته ووجوب عبادته.

قال تعالى: ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾؟!

وقال تعالى: ﴿**فلينظر الإنسان مِمَّ خُلق خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنّه على رجعه لقادر يوم تبلى**

السرائر فما له من قوة ولا ناصر﴾.

إذاً الله تعالى حق، ورسوله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم حق، والساعة حق، والجنة حق، والنار حق.

قوله تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان**﴾ الآية.

الكلام على هذه الآية له وجوه:

الوجه الأول: الخلق هنا بمعنى الإيجاد؛ وكلمة الخلق تأتي في القرآن على معانٍ:

الأول: الخلق بمعنى إيجاد الشيء بعـد أَنْ لَمْ يكن، ومِن هذا قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اتّقوا ربَّكم الـذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾.

وقـال تعـالى: ﴿**الله خـالق كـل شيء وهــو على كـل شيء وكيل**﴾.

وهكذا آيات كثيـرة جاءت بهـذا المعنى؛ وهو الخلق بمعنى الإيجاد كما قلنا.

وهــذا الخلق بمعنى الإيجــاد لا يُنسب إلا إلى الله تـعــالى وحده، لا يتصف به غيره سبحانه، ولا يجوز أَنْ ينسسب لغيره.

قال تعالى: ﴿**الله خالق كل شيء**﴾.

وقال تعالى: ﴿**هل من خالق غير الله**﴾ الآية.

وفي هـذا تحدٍّ من الله تعـالى أَنَّ أحــداً غيـره لا يستـطيـع الخلق الإيجادي، كما قال سبحانه: ﴿**أروني ماذا خلق الـذين من دونه**﴾ الآية.

فيقال للعبد: أَوْجَدَ الشيء، ولا يقال خلقـه، لأنّ الخلق هو

الإيجاد بعد العدم، وهذا لا يَقْدر عليه إلا الله تعالى.

وقد تحدى سبحانه جميع الخلائق أَنْ يخلقوا ذرة.

فجميع الأشياء الموجودة فالله تعالى هو خالقها لا غيره، حتى أعمال الإنسان وأقواله، قال تعالى: ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾.

الثاني: وقد يأتي الخلق بمعنى التصوير والإبراز على مقدار معين لا بمعنى الإيجاد من العدم؛ وبهذا المعنى يجوز وصف المخلوق به.

قال تعالى: ـ في عيسى عليه السلام ـ ﴿**وإذ تَخْلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني**﴾ الآية.

فما كان من عيسى عليه السلام إلا التصوير على هيئة الطير وتقديره، فإذا نفخ فيه قال الله تعالى لتلك الصورة كن فيكون طيراً، بإذن الله تعالى.

فالتصوير والتقدير من عيسى عليه السلام، ولكنّ الإيجاد والتكوين من الله تعالى، فهو خالق كل شيء سبحانه.

والخلق بمعنى التصوير قد جاء في الحديث: «يقال للمصورين يوم القيامة: أحيوا ما خلقتم» ـ أي: أحيوا ما صَوَّرْتم.

روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الذين يصنعون هذه الصُّور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم» ـ أي: ما صوَّرتُم.

وفي حديث الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، وفيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أصحاب هذه الصُّور يعذبون يوم القيامة، فيقال لهم: أحيوا ما خلقتم».

وقال: «إنّ البيت الذي فيه صورة لا تدخله الملائكة».

الثالث: وقد يطلق الخلق على الاختلاق والكذب.

كما قال سبحانه: - في المشركين: ﴿**وتخلقون إفكاً**﴾ - أي: تفترون كذباً، فتعبدون أصناماً وتسمونها آلهة، وإنّما هي أحجار مصنوعة، كما قال تعالى: ﴿**قل سموهم**﴾ - أي: اذكروا اسم هذا الصنم الحجري الحقيقي، فإنّ اسمه حجر، أو حديد، أو نحاس، أو نحو ذلك مما صَنَعَتْهُ أيديهم.

فتسميتها آلهة هذا كذب واختلاق، فالإلّه الحق هو الله رب العالمين، الخالق البارىء المصور، فإن الربوبية والألوهية متلازمتان، فالرب الحق هو الإلّه الحق، والإلّه الحق هو الرب الحق، ألا وهو الله الواحد الأحد، والحمد لله رب العالمين.

الوجه الثاني من الكلام على الآية الكريمة:

﴿**ولقد خلقنا الإنسان...**﴾ الآية.

الإنسان هو الذي يَرجع إلى آدم عليه السلام، فكل واحد من آدم عليه السلام وذريته يقال له: إنسان، وهو مأخوذ من آنس أي: أبصر.

قال تعالى: ﴿**آنس من جانب الطور ناراً**﴾ أي: أبصر.

فالإنسان يُبْصَر ويُرَىٰ، ولذلك جاء ذكره في مقابلة الجانّ.

قال تعالى: ﴿**خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار**﴾.

فالجان هو: المستتر الخفي الذي لا يُرى، فلما قابله بالإنسان دلّ على أنّ الإنسان سُمي بذلك لأنه يُرىٰ.

قال تعالى: ﴿مِنَ الجِنَّةِ والنّاس﴾.

وقال: ﴿يا معشر الجن والإنس﴾.

فترى في كثير من الآيات يقابل الإنس بالجن، لأنّ الإنسي يُبصَر ويُرى، وأما الجني فهو خفي لا يُرى إلا على وجه خاصٍّ كما هو معلوم..

وقال بعض علماء اللغة: إن الإنسان هو مشتق من الأُنس ضد الوحشة، لأنسه ببني جنسه، لأنه مَدني بالطبع يألف ويؤلف.

ولذا قيل:

وما سمي الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقيل: سمي الإنسان لنسيه مأخوذ من النسيان.

كما قيل:

وما سمي الإنسان إلا لنَسْيه وأوَّلُ ناسٍ فيهم أول الناس

وجمع الإنسان: ناس، وأنس، وأناسي، وهذه تعتبر بالنسبة للإنسان أسماء جموع كما هو معلوم ومفصل في كتب اللغة.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه**﴾.

الوسوسة هي في اللغة: الصوت الخفي، والمراد هنا ما يختلج في سِرِّ الإنسان وقلبه وضميره، وهو المسمى حديث النفس، بمنزلة الكلام الخفي.

والباء في ﴿به﴾ قد اختلف فيها، وأكثرهم على أنّها للتعدية على معنى أنّ النفس تَجعل الإنسان قائماً به الوسوسة، فالمحدِّث هو نفس الإنسان والوسوسة بمنزلة الحديث، فيكون هذا نظير حَدَّث نفسَه بكذا.

والعرب تقول ذلك، كما تقول حدَّثَتْه نفسُه.

قال لبيد:

وأكـذِب النفسَ إذا حـدثتُهـا إنّ صدق النفس يُزري بـالأمل

وقد أعلم الله تعالى عباده بأنّه سبحانـه يَعلم ما تـوسوس بـه أنفسهم، ليكونوا على حذر من المعاصي والمخالفات، فليحـذروا أنْ تُحدثهم أنفسهم بذلك، فتزين لهم، وتحملهم على فعلها.

قـال تعـالى: ﴿**واعـلمـوا أن الله يعـلم مـا في أنـفسكم فاحذروه**﴾.

فإن الوسواس يكون خطرات تخطر سـريعاً، ولكن قـد تؤدي متعلقـات هذه الخـطرات والوسـاوس إلى الفكر، فيأخذهـا الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها الـذكر فيحـوِّلها إلى إرادة، فتـأخذهـا الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة.

فردُّ الوسواس والخطرات السيئة من مبادئها أسهل من قطعها بعـد استحكـامهـا وقـوتهـا، سـواء كـان ذلـك صـادراً عن حـديث النفس، أو من قبل الشياطين الموسوسة في صدور الناس.

ويستعـان على رد الخواطـر السيئة والـوسواس بقـوة الإيمان بالله تعالى، وبالتعوذ بالله من شرورها، كما جاء في سورة: ﴿**قـل أعوذ برب الناس ملك الناس إلّه الناس من شر الوسواس الخناس الذي يُوسوس في صدور الناس من الجنة والناس**﴾.

وقـد جاء في الحـديث: أنّ أصحـاب النبي صلى الله عليـه وعلى آله وسلم قالوا: يا رسول الله: إنّ أحدنـا يجد في نفسـه ما لأن يحترق حتى يصير حُمَمَة[1] أحبُّ إليه من أن يتكلم به.

(١) الحممة: الرماد والفحم، وكل ما احترق من النار، وجمعه حُمَم.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَوَجدتموه»؟.

قالوا: نعم.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ذلك صريح الإيمان».

وفي رواية: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

وفي شرح ذلك قولان للعلماء:

أحدهما: أنّ رده وكراهيته هذا صريح الإيمان، لأنّ هذه الكراهية الشديدة تدل على عمارة القلب بالإيمان، ولذلك كره تلك الوسوسة.

الثاني: أنَّ وجود إلقاء الشيطان له في النفس هذه الوسوسة، هذا صريح الإيمان، لأنّ الشيطان إنما ألقاه في نفس المؤمن طلباً منه لمعارضة الإيمان، ولإزالته به؛ فإن الشيطان يتقصد قلوب المؤمنين العامرة بالإيمان؛ ليشوش عليها؛ ويضعف نور الإيمان الذي فيها، ولذلك يجد المؤمن كراهية لها، ونُفْرةً منها ـ فهذا كله دليل على صريح الإيمان وصدقه.

وأما قلب الكافر والمنحرف أو المشتبه أو المشكك ـ عياذاً بالله تعالى ـ فيرتاح، وينشرح لها ـ نسأل الله تعالى العافية ـ.

ومن ثَمّ جاء في الحديث أَنَّ حديث النفس وما يرد على قلب المؤمن من وسواس وخطرات غير مرضية لله تعالى ذلك معفو عنه إذا أنكرها وردَّها، لأنّه لا يدخل تحت قدرة الإنسان، فإن الوساوس تأتيه رغماً عنه وكرهاً، ولكنّه يمكنه أن يتعوذ منها ويردها بقوة الإيمان؛ ولا يعمل بموجبها إذا كانت سوءاً.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ الله تعالى تجاوز لي عن أمتي ما حدَّثَتْ به أنفسهم ـ ما لم يعملوابه أو يتكلموا».

وبهذه المناسبة أذكر ما قاله العارفون حول الواردات على القلوب وأنها على أربعة أنواع:

الوارد الرحماني: وهو أوَّل الخواطر ويسمى السبب الأول، ويعرف بقوته وتسلطه على القلب السليم الصافي الفطري؛ وعدم اندفاعه؛ بل يرد على القلب بقوة وتمكن وتثبت.

والوارد الملكي: وهو ما يبعث صاحبه على فعل الخير وعمل الصلاح، ويسمى إلهاماً. فيستحسن فعل الخير، ويميل إلى فعله مع الطمأنينة، وفيه داعية إلى الخير والبِرِّ، وإبعاد عن الشر والفساد.

والوارد النفساني: وهو ما فيه حظ النفس ويسمى هاجساً ووسوسة، وهواجس النفس متواصلة.

والوارد الشيطاني: وهو ما يدعو صاحبه إلى فعل الشر ومخالفة الحق، ويسمى وسواساً.

والأصل العام الحاكم في التفرقة بين تلك الواردات هو الميزان الشرعي، وذلك بأن تعرض ما يَرِدُ عليك على ميزان الشريعة، فما وافق ما جاء به الشرع فهو من الأَوْلَيَيْن، وما خالفه فهو من الأخيرين.

قال الله تعالى: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم**﴾.

وقد بَيَّنَ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم معاني هذه الآية ـ لأنّه صاحب البيان عن القرآن، فقال كما في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وعلى آله وسلم: «إنّ للشيطان لَمَّةً بابن آدم، وللملك لَمّة.

فأما لَمَّة الشيطان، فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق.

وأما لمة الملك، فإيعاد بالخير وتصديق بالحق.

فمن وجد ذلك فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم**﴾[1].

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾.

حبل الوريد: هو العِرق المحيط بالعنق يميناً وشمالاً، يرد منه الدم ويجري، والله تعالى أقرب إلى الإنسان من نفس الإنسان، قرباً مطلقاً لا كقرب المخلوق من أخيه المخلوق، ولا يدخل تحت المسافات الزمنية والمكانية، وليس هو من باب قرب الروح من الروح، ولا الجسم من الجسم؛ لطيفاً كان أو كثيفاً، بل هو قرب مطلق كما يليق به سبحانه وتعالى جل وعلا، ليس كمثل قربه قرب، ولا يُشبه أيَّ قرب من المخوقات، فإن قرب مَنْ ليس كمثله شيء ليس مثله شيء.

فإن الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في جميع شؤوناته بل هو كما هو، والله أكبر كبيراً.

قال تعالى: ﴿**وكبِّره تكبيراً**﴾ ـ أي: تكبيراً مطلقاً.

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن غريب، ورواه النسائي وابن حبان في صحيحه، ومن أراد التوسع في هذا الباب فليرجع إلى كتاب: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام).

فالله تعالى أكبر من أن يكون قربه يشبه قرب المخلوقات بأنواعها، بل له القرب المطلق كما يليق بكماله، وكما هو الله تعالى رب العالمين.

ومن حاول أَنْ يقف على حقيقة ذات الحق جل وعلا، أو على حقيقة صفة من صفاته، أو شأن من شؤوناته فقد حاول المستحيل.

وأنّى للمخلوق المتناهي المقيد المحدود بعقله وعلمه أَنْ يحيط بما لا يتناهى، فإنه سبحانه إليه المنتهى وليس له انتهاء، لا في ذاته ولا صفاته، قال سبحانه: ﴿**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً**﴾.

فهو سبحانه المحيط علماً بجميع مخلوقاته، من جميع حيثياتهم، وأينياتهم، وجهاتهم، وتوجهاتهم، وأما هو فلا يحيطون به علماً من جميع وجوه العلم؛ لا بذاته ولا بصفاته ولا بشؤوناته.

وكيف يتصور أَنْ يحيط المخلوق المُحاط بِمَنْ به قد أحاط؟!

وكيف يحيط المخلوق المحدود من جميع الوجوه والاعتبارات والحيثيات كيف يحيط بالرب الخالق الأكبر المطلق؟!

قال تعالى: ﴿**وكَبِّره تكبيراً**﴾ - أي: تكبيراً مطلقاً.

فهو سبحانه الأكبر المطلق وحده، في ذاته وصفاته وكمالاته وشؤونه، لا يساوى، ولا يسامى، ولا يشابه، ولا يضاهى، فالأكبرية على وجه الإطلاق هي لله تعالى وحده، كما جاء في الحديث عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول دبر كل صلاة: «**اللهم رَبَّنا وربَّ كل شيء** أنا شهيد أنّك الرب وحدك لا شريك لك.

اللهم ربَّنا وربَّ كل شيء أنا شهيد أنّ محمداً عبدك ورسولك.

اللهم ربَّنا وربَّ كل شيء أنا شهيد أنّ العباد كلهم إخوة.

اللهم ربَّنا وربَّ كل شيء اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة، يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب.

الله الأكبر الله الأكبر.

الله نور السموات والأرض.

الله الأكبر.

حسبي الله ونعم الوكيل.

الله الأكبر الله الأكبر».

رواه أبو داود والنسائي وأحمد.

ورواه مسلم بلفظ: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول دبر كل صلاة مكتوبة... الحديث.

قوله تعالى: ﴿**إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد**﴾.

والمعنى: واذكر لهم يا محمد يا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذ يتلقى الملكان المحيطان بأحدهم عن اليمين وعن الشمال، يكتبان أعمالهم وأقوالهم، وأعمال قلوبهم - وجيء بهذه الجملة من باب التقرير والتأكيد، لإحاطة علمه سبحانه بعباده، فإنّه العليم الخبير الذي يُطلع ملائكته الحفظة على أعمال العباد، وأقوالهم وعزائم قلوبهم، ونياتهم الخفية.

فالملائكة الحفظة هم على علم بذلك، فالله تعالى الذي

أطلعهم هو أعلم بذلك من باب أولى وأقوى، وإنّ علمه سبحانه بشؤون عباده هو علم ذاتي قديم، وأمّا علم الملائكة فهو حادث، وهو بإطلاع الله تعالى لهم على ذلك لا من ذاتهم.

قال تعالى: ﴿**أَمْ يحسبون أنّا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون**﴾.

﴿**إذ يتلقى المتلقيان**﴾.

وهم الملكان الموكلان بكل إنسان، يكتبان عليه أقواله وأعماله الحسية والقلبية.

والتلقي هو التلقن بالحفظ والكتابة، وقد أخبر سبحانه عباده بذلك ليكونوا على حذر مما يعملون ويقولون، وليعلموا أنّ الملائكة الكتبة تتلقى عنهم، وتكتب عليهم، وسوف يُعرض الكتاب يوم الحساب. ﴿**إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾.

فهناك ملكان قعيد عن اليمين، وقعيد عن شمال الإنسان، متوجهان للإنسان ببصرهما، ومصغيان إليه، بحيث ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب، مترقب له ماذا يقول، عتيد حاضر العدة، فهو مستعدٌّ ومتهيِّئٌ كل التهيؤ لتلقي ما يلفظه الإنسان ليسجله عليه، ويسطره بأمانة لا زيادة ولا نقصان، وهذا كما قال تعالى: ﴿**كَلاَّ بل تكذبون بالدين وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون**﴾.

فهناك الملائكة الحفظة وهم كما بَيَّنْت في كتاب: (الإيمان بالملائكة) على صنفين:

الصنف الأول: الذين يحفظون الإنسان من المكاره والشدائد، وموكلون بتسيير مداركه وجسمه ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿**له مُعَقِّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**﴾ الآية.

فهم يحفظون، مِنْ أجل أنّ الله تعالى أمرهم بذلك، وإذا لم يأمرهم تخلّوا عنه فهلك، ومن هذا قوله تعالى: ﴿**وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون**﴾.

والصنف الثاني: الملائكة الذين يحفظون على الإنسان أقواله وأعماله وأحواله، ويكتبونها، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿**وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون**﴾.

وفي هذه الكتابة وجوه من الحِكَم:

أولاً: أَنْ يعلم العباد أَنّ عليهم رقباء يرقبونهم في جميع تقلباتهم، ويسجلون عليهم كافة أفعالهم وأقوالهم، قال تعالى: ﴿**ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد**﴾، وذلك مما يكف الإنسان عن فعل المخالفات، وارتكاب المنكرات، ويحمله على منهج الاستقامة والكرامة.

فإنَّ الإنسان حين يعلم أَنَّ عليه رقيباً يرقبه من جانب من يلي عليه، تراه يلتزم حدَّه ويقف عنده، لعلمه بمراقب يرقبه، مع أنّ هذا الرقيب هو إنسان مثله، قد يغفل ويسهو، وينسى ويلهو، فما ظنك برقابة رقباء يلازمون رَقَبة ابن آدم، لا يتركونه في الليل ولا في النهار، ولا يسهون ولا يغفلون، بل هم كما وصفهم سبحانه: ﴿**يعلمون ما تفعلون**﴾؟!

ولذا قال تعالى منبهاً ومتوعداً للطغاة: ﴿**أم يحسبون أنّا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون**﴾.

كما بين سبحانه أنَّ مكر الماكرين في آياته هو مسجَّل عليهم.

قال تعالى: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا. قل الله أسرع مكراً إنّ رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾.

وهذا شأن المنكرين الجاحدين، أنَّهم إذا أذاقهم الله رحمة، رخاء وسعة ونعمة ـ بعد ضراء ـ أي: شدة وضيق وبلاء ـ إذا هم في تكذيب واستهزاء بآيات الله تعالى، وطعن فيها، وعدم اعتراف بنعم الله عليهم.

ثانياً: إنَّ هذا الكتاب الذي يُسطِّر على بني آدم أعماله وأقواله، سوف يكون يوم القيامة حجةً عليه إذا هو خالف أوامر الله تعالى، أو ارتكب ما حرم الله تعالى، ولا يستطيع حينئذ أنْ يُنكر شيئاً مما سَطَّره عليه الكتاب من صغيرة أو كبيرة.

قال تعالى: ﴿وكلُّ شيء فعلوه في الزُّبُر. وكلُّ صغير وكبير مستَطَر﴾ ـ أي: مسطَّر عليهم في صحائفهم التي كَتبها الكرام الكاتبون.

وفي (المسند) وغيره عن عائشة رضي الله عنها، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يقول: «يا عائشة إياكِ ومحقَّرات الذنوب، فإنّ لها من الله طالباً».

فالصغيرات والمحقَّرات من الذنوب في نظر فاعلها لها طالب، وعليها حاسب.

ثالثاً: أنْ يعلم العبد أَنّ أعماله تُكتب عليه، وتحفظ في كتابه، حتى إذا جاء يوم القيامة عُرضت على رؤوس الأشهاد، فإن كانت أعمالاً صالحة وأقوالاً طيبة فرح بذلك، وسُرَّ سروراً عظيماً، ويُعطى كتابه بيمينه، وهنا يقول معلناً سروره وغبطته: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾.

قال الله تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم[1] اقرؤوا كتابيهْ. إني ظننت أنّي ملاقٍ حسابِيَهْ. فهو في عيشةٍ راضيةٍ﴾ الآيات.

وقال تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم[2] فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم﴾ - أي: فرحين مستبشرين، ومعلنين ذلك على مرأى الأشهاد ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾.

وإنْ كانت أعمالاً سيئة، سيء وجهه وكرب لذلك، وأخذ يتلوّم ويتحسَّر، قال الله تعالى: ﴿وأما مَنْ أُوْتي كتابه بشماله فيقول: يا ليتني لم أُوتَ كتابيهْ. ولم أدرِ ما حسابيهْ. يا ليتها كانت القاضية. ما أغنىٰ عني ماليهْ. هلك عني سلطانيهْ﴾.

رابعاً: أَنْ توضع كتب الفجار وما اشتملت عليه من قبائح وفضائح، وسيئات وهنات، في ديوان سجِّين أسفل سافلين، وتتوارد عليهم الويلات واللعنات.

وتُرفع كتب الأبرار وما احتوت عليه من أعمال الطاعات والحسنات والخيرات إلى ديوان عليين، ليشهدها المقرَّبون من الملائكة، والأرواح العالية، ومقرّبو كل سماء، وهناك يُثنى على أصحابها، وينشر فضلهم، ويعلو ذكرهم وتُشهد كرامتهم، ويُذكر فعلهم.

قال الله تعالى: ﴿كلّا إنَّ كتاب الفجار لفي سجّين. وما

---

(١) أي: خذوا اقرؤوا كتابي، وانظروا ما فيه من الحسنات والخيرات.

(٢) أي: برسولهم، أو دينهم، أو كتابهم الذي جاء به نبيهم، فيقال: يا أتباع النبي فلان، ويا أهل دين كذا، ويا أهل كتاب كذا.
وعن ابن عباس رضي الله عنه: أَنَّ المراد بالإمام هنا متبوعهم في الدنيا، الذي اتبعوه في الخير أو في الشر، في الهدى أو في الضلال.

أدراك ما سجين كتاب مرقوم. ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إن كتاب الأبرار لفي علّيين. وما أدراك ما علّيون كتاب مرقوم. يشهده المقرّبون﴾.

خامساً: أَنْ يوضع الكتاب يوم القيامة للحساب.

قال تعالى: ﴿ووُضِع الكتاب، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون: يا ويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾.

وقال تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها، ووضع الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾.

والمعنى: أَنّ أرض الموقف أشرقت بنور ربها لما تجلى سبحانه لفصل القضاء بين الخلائق، وهناك حقّت الحقائق، وبرزت الدقائق، وبُليت السرائر، وظهرت الضمائر، فعلمت كل نفس ما أحضرت.

وقوله تعالى: ﴿ووضع الكتاب﴾ قال كثير من المفسرين: المراد بهذا الكتاب كُتب أعمال العباد، و﴿أل﴾ فيه للاستغراق، والمراد بوضعه جعل كل كتاب في يد صاحبه: اليمين أو الشمال، أو جعل كل كتاب في ميزان صاحبه.

وذهب بعض المحققين إلى أنّ المراد بهذا الكتاب هنا: كتاب واحد جامع لجميع أعمال العباد يوضع للحساب.

قال العلامة اللقاني في بعض شروحه على الجوهرة: جزم الغزالي رضي الله عنه بما قيل إنّ صحف العباد يُنسخ ـ أي: يكتب ـ ما في جميعها في صحيفة واحدة اهـ.

قال في (روح المعاني): والظاهر أنّ جزم الغزالي وأضرابه

لا يكـون إلا عن أثر، لأنّ مثله لا يُقال من قِبل الـرأي كمـا هـو الظاهر. اهـ.

أقول: قد بيَّن ذلك بعض المحققين من العلماء العـارفين، فذكر أنَّ هناك كتابين عظيمين جامعين:

أحـدهمـا: **يسمى**: **(أُمّاً)** كتب فيـه مـاهـو كـائن إلى يـوم القيامة، فهو كتاب ذو قدر معلوم، فيه بعض أعيان الممكنات، وما يتكوَّن عنها ويسمى: (كتاب القضاء) وهـو ـ أي: القضاء ـ الحكم الإلّهيّ على الأشياء الممكنة بكذا وكذا.

وثانيهما: **يسمى**: **(كتـاب الإحصاء)** قـال تعالى: ﴿**وكـلَّ شيءٍ أحصيناه كتاباً**﴾، وقد كتب فيه ما يتكوَّن عن المكلفين خاصةً، فلا تزال الكتابة فيه مستمرةً ما دام التكليف باقياً، وبه تقوم الحجـة لله تعالى على عباده المكلفين، وبه يُطالبهم ويحـاكمهم يوم القيـامة، لا بالكتاب الأول، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿**ووضـع الكتاب فتـرى المجرمين مشفقين ممـا فيه ويقـولـون يـاويلتنـا مـالِ هـذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**﴾ الآية.

وكلا الكتابين محصور، لأنه موجود بإيجاده تعالى، وأما علم الله تعـالى في الأشياء فـلا يحصره كتـاب مـرقـوم، ولا يسعـه رَقّ منشور، ولا لوح محفوظ، ولا يسطره قَلم أعلى. اهـ.

ومن جملة الشهداء الذين يشهدون يوم القيامة على العبـاد: الكرام الكاتبون، يشهدون على النفس الموكلين عليها.

قال تعالى: ﴿**وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد**﴾.

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنـه قـال: ضحـك رسـول الله ﷺ فقال: «هل تدرون ممَّ أضحك؟».

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «مِنْ مخاطبة العبد ربَّه.

فيقول: يا ربِّ ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى.

فيقول ـ العبد ـ: إني لا أجيز اليوم على نفسي شاهداً إلاّ مني.

فيقول ـ تعالى ـ: كفى بنفسِك اليوم عليك حسيباً، والكرامِ الكاتبين عليك شهوداً.

قال: فيختم على فيه ـ أي: فمه ـ ويقال لأركانه ـ أعضائه ـ: انطقي، فتنطق بعمله.

ثم يُخلَّىٰ بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لكُنَّ وسُحقاً، فعنكُنَّ كنتُ أناضل» ـ أي: أجادل وأدافع.

موقف العبد يوم القيامة من كتابه وكُتّابه: إذا نشرت صحف الأعمال وشهد على ذلك الكرام الكاتبون: أقرَّ العبد بذلك، وأيقن بصدق الملائكة الكتبة وثقتهم، ولم يجد سبيلاً إلى الإنكار ولا الاعتذار، ولا للطعن في الشهداء لأنهم عدول أخيار، كما ورد في حديث البطاقة: «إنَّ الله تعالى يقول للعبد: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟

فيقول: لا يا ربّ.

فيقول: أفَلَك عذر؟

فيقول: لا يا ربّ..» الحديث.

وكيف يستطيع العبد يوم القيامة أنْ ينكر أعماله التي صدرت منه في الدنيا، والحال قد نطق بها كتابه؟

قال تعالى: **﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق، وهم لا يظلمون﴾**.

أم كيف يُنكر العبد أعماله وقد وجدها حاضرةً أمامه؟

قال تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً﴾.

وقال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوءٍ..﴾ الآية.

بل كيف ينكر العبد أعماله وقد ارتسخت آثارها في لوح نفسه، فهو يشهدها بحسه.

قال تعالى: ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

قوله تعالى: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معَها سائق وشهيد لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾.

يُخبر سبحانه عن القيامة الصغرى، وهي موت الإنسان؛ والكبرى وهي قيام الناس لرب العالمين، وأنّ الإنسان المنكر للآخرة والحساب تأتيه سكرة الموت بالحق الذي كان ينكره ويجحد به، ويحيد ويميل عنه، فيلاقي عند الموت ويعاين الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويعاين الآخرة.

ثم يُنفح في الصور وهو: مجمع الأرواح في عالم البرزخ، ثم تجيء كل نفس ومعها سائق من الملائكة يسوقها، وشهيد من الملائكة يشهد عليها.

ويقال للإنسان الكافر الذي كان في الدنيا يُنكر الآخرة والحشر يقال له: ﴿لقد كنتَ في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾.

ـ أي: حادٌّ نافذ، يبصر ما لم يكن يبصره من قبل، لأنّ الغطاء قد كُشف عنه، فانتبه واستيقظ، كما يكشف غطاء النوم عن النائم فينتبه ويستيقظ، ويرى ما لم يره قبل إفاقته.

قوله تعالى: ﴿وقال قرينه هذا ما لديَّ عتيد﴾.

يخبر سبحانه أَنّ قرينه الذي قُرن به في الدنيا من الملائكة عليهم السلام يقول لما يُحضر الذي وكل به؛ هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا يا رب، قد أحضرته وأتيتك به.

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة».

قالوا: وإياك يا رسول الله؟.

قال: «وإياي إلا أنّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم فلا يأتيني إلا بخير» رواه مسلم وغيره.

وقال بعض العلماء: الذي يقول هذا ما لدي عتيد هم الكرام الكاتبون من الملائكة[1] كل منهما يقول ذلك.

وبعد ذلك يقال لهما: ـ أي: للملائكة الكرام الكاتبين عن اليمين وعن الشمال يقال لهما: ﴿ألقيا﴾.

﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾.

هذا خطاب للسائق والشهيد الموكلين به، أو أنّ هذا

---

(١) وتفصيل البحث حول الكرام الكاتبين وما يكتبونه ووظيفتهما المنوطة بالإنسان، قد بينت ذلك في مصنف من كتاب: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) فارجع إليه فإنك تجد أيضاً تفصيل الكلام على القرين الملكي والقرين الجني. اهـ.

الخطاب للملك الموكل بتعذيب الكافر وسوقه إلى جهنم.

وجيء بقوله: ﴿ألقيا﴾ بناء على أنّ الألف بدل عن نون التوكيد، إجراء للوصل مجرى الوقف، أوْ من باب تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل، بأن يكون أصله ألق ألق، فثنى الضمير ليدل على ذلك كما قال الشاعر:

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر وإن تدعاني أحم عرضاً ممَّنعا

أوهذا من باب مخاطبة الواحد خطاب الإثنين، وهو كثير في لغة العرب كقولهم: يا خليليَّ وصاحبيَّ واسعدا، وقفا.. إلخ.

قوله تعالى: **﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلٓهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾**.

هذه ست صفات ذكرها الله تعالى عن المُلقىٰ في جهنم، وصفها سبحانه ليتباعد المسلم عن كل واحدة منها، فإنّ كل واحدة تُنافي الإسلام، وتُضر بالإيمان وتفسده.

الصفة الأولى: أنّه كَفَّار لنعم الله تعالى، وحقوقه عليه، فهو كَفَّار بدينه وبتوحيده سبحانه، وكفّار برسله وملائكته عليهم الصلاة والسلام، وكفّار بكتب الله تعالى، وكفّار بلقائه ربه، ولذلك وُصف بالكفر بصيغة المبالغة وهي: فعَّال.

الصفة الثانية: عنيد - أي: معاند للحق، يدفعه ولا يقبله، جحوداً وعناداً، مع أنَّه يعلم جزماً أنَّه الحق كما قال سبحانه: - في كفار قريش: **﴿فإنّهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾**.

والمعنى: أنهم يعلمون صدقك يا رسول الله، ويعلمون أنّ الآيات التي جئت بها هي من عند الله تعالى؛ ولكن الظالمين

يجحدون وينكرون بعد علمهم عناداً وكبراً.

ومن المعلوم أنّ العنيد هو كالحديد لا تُلين قسوته وصلابته إلا نار الوعيد والعذاب الشديد.

وقال سبحانه: ـ في فرعون وقومه لما جاءهم موسى عليه السلام بالآيات البينة: **﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾**.

والعناد هو الداء الأكبر الذي يصد كثيراً من الناس عن قبول الحق، والاعتراف به بعدما عرفوه.

الصفة الثالثة: ـ مناع للخير ـ فهذا الذي أُمر بإلقائه في النار وهو الإنسان الكافر، هو مناع للخير أنْ يصل إلى نفسه، وأنْ يصل إلى بني جنسه، فهو لا يُحسن إلى نفسه بفعل الخيرات، وعمل الطاعات، والقيام بالعبادات والقربات إلى الله تعالى، ولا يُحسن إلى عباد الله تعالى بالإحسان إليهم بماله، أو حاله، أو قاله، أو جاهه، وهذا يتنافى مع الإيمان ويناقضه، فإنَّ الإيمان يتطلب الإحسان إلى بني جنسه؛ بل إلى الحيوان، ويتطلب أنْ يوصل الخير لغيره ما استطاع، وأن يُحسن إلى الضعفاء والمساكين، ويسعى في قضاء حاجات المحتاجين.

قال الله تعالى: **﴿وأحسنوا إنّ الله يحب المحسنين﴾**.

وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾**.

فانظر يا أخي كيف أمر الله تعالى أوّلاً بعبادته لأنها حق الله تعالى على عباده، ثم أمر بفعل الخير إلى العباد؛ فإنّه حق العباد على بعضهم ـ فافهم ذلك فإن الله تعالى سوف يسألك عن ذلك.

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله

صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه[1]، مَن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومَن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» رواه الشيخان وأبو داود.

وفي حديث مسلم في رواية له: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

وروى الطبراني عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ لله عند أقوام نِعماً أقرها عندهم ما كانوا في حوائج المسلمين ما لم يملوهم، فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم».

وروى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي وقال: «اتَّقِ المحارم تكن أعبد الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».

فالإنفاق من الخير يَزيد في الخير ويبقيه، وترك الإنفاق يؤدي إلى الهلاك والنفاق.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس إليه فتبرّم - أي: تضجر - فقد عرَّض تلك النعمة للزوال».

قال المنذري: رواه الطبراني بسند جيد.

---

(١) أي: لا يسلمه ويتركه إلى الأعداء، بل يدافع عنه الأذى والعدوان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «من مشى في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق، كل خندق أبعد مما بين الخافقين».

قال المنذري: «رواه الطبراني في (الأوسط) والحاكم، وقال: صحيح الإسناد إلا أنه قال: قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته - وأشار بأصبعه - أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين».

وعن ابن عُمر وأبي هريرة رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مشى في حاجة أخيه حتى يقضيها له أظله الله عز وجل بخمسة وسبعين ألف ملك، يصلون له ويدعون له؛ إنْ كان صباحاً حتى يمسي، وإن كان مساءً حتى يصبح، ولا يَرفع قدماً إلا حَطَّ الله عنه بها خطيئة، ورفع له بها درجة» رواه أبو الشيخ وغيره.

وروي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يُخرج خلق من أهل النار، فيمر الرجل بالرجل من أهل الجنة فيقول: يا فلان أما تعرفني؟

فيقول: ومن أنت؟

فيقول: أنا الذي استوهبتني قرضاً فوهبته لك - فيشفع فيه.

ويمر الرجل فيقول: يا فلان أما تعرفني؟ فيقول: ومن أنت؟ فيقول: أنا الذي بعثتني في حاجة كذا وكذا فقضيتها لك - فيشفع له فَيُشَفَّع فيه»[1].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا باختصار، وابن ماجه، والأصبهاني واللفظ له.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من كان وُصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ برّ؛ أو تيسير عسير؛ أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام»[١].

ورواه الطبراني ـ أيضاً ـ في (الصغير والأوسط) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من كان وصلة لأخيه إلى ذي سلطان في مبلغ بِرٍّ؛ أو إدخال سرور؛ رفعه الله في الدرجات العلى من الجنة».

فالوساطة إلى ذي السلطان في تبليغه أمراً فيه برٌّ وخير، أو تيسير عسير، أو رفع مكروه ذلك أمر مأجور عليه.

وروي عن سيدنا الحسن بن سيدنا علي عليهما السلام عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: « إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم»[٢].

وروي عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «أفضل الأعمال إدخالك السرور على المؤمن: كسوتَ عورته، أو أشبعتَ جوعته، أو قضيتَ له حاجة»[٣].

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّ رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: يا رسول الله أيُّ الناس أحبُّ إلى الله تعالى؟

---

(١) رواه الطبراني في (الصغير والأوسط) وابن حبان في (صحيحه).

(٢) رواه الطبراني في (الكبير والأوسط).

(٣) رواه الطبراني في (الأوسط)، ورواه أبو الشيخ ولفظه: «أحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تطرد عنه جزعاً، أو تقضي عنه ديناً».

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجلٍ سرور تدخله على مسلم تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً.

ولأَنْ أمشي مع أخي في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد ـ يعني: مسجد المدينة ـ شهراً.

ومن كظم غيظه ولو شاء أن يُمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضىً.

ومَنْ مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له ثَبَّت الله قدميه يوم تزول الأقدام»[1].

قوله تعالى: ﴿**قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد.**

قال لا تختصموا لديَّ وقد قدَّمتُ إليكم بالوعيد ما يُبدَّل القول لديَّ وما أنا بظلام للعبيد.

يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾.

يجري الخصام بين الكافر وبين قرينه الشيطان المقيّض له، فيلقي الكافر التبعة على القرين، فيتبرأ القرين، ويقول: ربَّنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ـ أي: هو ضَلّ عن سبيل الهدى؛ وسلك سبيل الردى.

فيرد الله تعالى عليهما بقوله: ﴿**لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد ما يبدل القول لديَّ**﴾ من أنّ الرجل الكافر جزاؤه جهنم حقاً ﴿**وما أنا بظلام للعبيد**﴾.

---

(١) رواه الأصبهاني واللفظ له، ورواه ابن أبي الدنيا عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمه.

﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾.

فيه بيان أنَّه سبحانه سيملأ جهنم كما أخبر بذلك، بقوله لإبليس: ﴿ لأملأنَّ جهنم منك وَمِمَّنْ تبعك منهم أجمعين﴾.

روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «تحاجَّت الجنة والنار.

فقالت النار: أُوثرت بالمتكبرين والمتجبرين.

وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطُهم.

فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي.

وقال للنار: أنت عذابي أُعذّب بك من أشاء من عبادي.

ولكل واحدة منكما ملؤها.

فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الجبار فيها قدمه، فهناك تزدوي وتمتلىء وتقول: قط قط.

وأما الجنة فإن الله تعالى ينشىء لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة».

قوله تعالى: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾.

هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات الكريمة التي يُخبر الله تعالى فيها عن جهنم وأوصافها؛ وأنواع العذاب فيها، ذلك كلُّه يوجب على العاقل الإيمان بذلك كله بلا ريب.

فيؤمن أوّلاً أنّ جهنم حق، وأنّ عذابها هو بحق ليس بظلم، وأنّ عذابها هو عذاب أليم محقق الوقوع، ليس من باب التمثيل أو التخييل أو التوهيم، فيخاف المؤمن من عذابها، ويستعيذ بالله تعالى منها، ويتقي الله تعالى حتى يقيه منها ويحفظه.

أما أولاً: فإن جهنم هي حق أي: هي عالم حقيقي، وهي موجودة.

قال تعالى: ﴿**واتقوا النار التي أعدت للكافرين**﴾.

فقد أعدها الله تعالى منذ خلقها للكافرين، فإنّهم مؤبدون فيها.

وقال تعالى: ـ في فرعون ـ: ﴿**النار يعرضون عليها غدوّاً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾.

فهم الآن يُعرضون عليها وهم في البرزخ، وهذا دليل وجودها.

قال تعالى: ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً**﴾.

فالنار مخلوقة، وقد أعدها الله تعالى للكفار، وأعد لهم فيها ألواناً من العذاب.

وفي الحديث المتفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ـ في حديث التهجد ـ «أنت الحق، ووعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم حق، والساعة حق..» الحديث.

وروى أصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لما خلق الله الجنة قال لجبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فلما رجع قال: وعزّتك لا يَسمع بها أحد إلا دَخلها ـ فحفّها الله تعالى بالمكاره» ـ أي: التكاليف الشرعية ـ فإن النفوس الفاسدة تستثقلها، قال تعالى: ـ في الصلاة ـ ﴿**وإنّها لكبيرة إلا على الخاشعين**﴾.

«ثم قال الله تعالى لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يدخلها أحد.

ولما خلق الله تعالى النار قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فلما رجع قال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ـ فحفّها الله تعالى بالشهوات.

ثم قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فلما رجع قال: وعزتك لقد خَشيت أنْ لا يبقى أحد إلا دخلها» الحديث.

وقد ذكرته في مناسبات متعددة، وشرحته في غير هذا الموضع.

فهذا الحديث صريح في خلق الجنة والنار ووجودهما.

وأما عذاب جهنم فهو عذاب أليم، كما وصفه الله تعالى ـ أي: عذاب مؤلم حقيقة ـ أعاذنا الله تعالى منها آمين.

وتقدم قوله تعالى: ـ في أصحاب النار ـ ﴿**وإنْ يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا**﴾.

فعذاب يشوي الوجوه تالله إنّه عذاب أليم.

وقال تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربِّهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يُصب من فوق رؤوسهم الحميم يُصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أَنْ يخرجوا منها من غَمٍّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾.

فهذه الآيات صريحة في أنّ عذاب جهنم هو عذاب حقاً وحقيقة واقعيّة، ليس من باب التوهم والتخويف من أمر خيالي.

وقال تعالى: ﴿إنّ الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إنّ الله كان عزيزاً حكيماً﴾.

فعذاب جهنم تَنضج منه الجلود، ويبدلون جلوداً غيرها وهكذا، والله عزيز حكيم يتصرف بالحكمة، فلا ظلم ولا جور، بل بالحق والحكمة، جزاءً بما كانوا يعملون.

روى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيُصبغ في النار صِبغةً ثم يقال له يا بن آدم هل رأيت نعيماً قط - أي: هل مَرّ بك في الدنيا التي كنت فيها هل مر بك خير قط؟ -

فيقول: لا والله يا رب.

ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيوضع في الجنة.

فيقال له: يا بن آدم هل رأيت بؤساً قط، هل مرّ بك - أي: في الدنيا - من شدة قط.

فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة».

فبغمسة واحدة غُمسها في عذاب جهنم نسي نعيم الدنيا كله.

إذاً والله إنّ عذاب جهنم عذاب أليم.

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: أيْ ربِّ، أكل بعضي بعضاً ـ فأذن لها نفسين: نفساً في الشتاء، ونفساً في الصيف.

فهو أشد ما تجدونه من الحر، وأشد ما تجدونه من الزمهرير».

فأشد حر يأتي على أهل الأرض هو نفس واحد من أنفاس جهنم، وأشد برد يعترض وجه الأرض هو نفس واحد من أنفاس جهنم.

أفترى أنّ الحر والبرد اللذين يأتيان على وجه الأرض هما حقيقة واقعية أَمْ خيال؛ أمْ وهم؟!! كلا بل هو حقيقة، فعذاب جهنم عذاب حقيقي شديد وأليم.

أعاذنا الله تعالى منها ـ آمين.

وقال تعالى: ـ في الكفار ـ **﴿يوم يُدعُّون إلى نار جهنم دعّا هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾**.

روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ضرس الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث».

فالكافر الداعية إلى الكفر يعظم جسمه في جهنم ويصير

ضرسه مثل جبل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث ليال، وذلك ليشتد ألمه بالعذاب.

ونسأل الله تعالى العافية ـ آمين.

روى الترمذي ـ وأصله في الصحيحين ـ عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ناركم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، لكل جزء منها حرّها».

فنار جهنم حامية ـ نعم إنها نار الله المُوقدة التي تطلع على الأفئدة، وعذابها أليم، ذلك حَقٌّ وحقيقة ليس وهماً ولا تخييلاً.

اللهم أجرنا من النار يا عزيز يا غفار ـ آمين.

وقد بين سبحانه أَنّ تعذيبه للكفار هو حق وليس بظلم باعترافهم.

قال تعالى: ﴿**ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وَرَبِّنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾.

وقال تعالى: ﴿**إنَّ المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكنّ أكثركم للحق كارهون**﴾.

ثم إنّه سبحانه وتعالى ذكر أهل الجنة وبَيَّن أوصافهم فقال سبحانه: ﴿**وَأُزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أوَّاب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد**﴾.

والمعنى: أن الجنة أزلفت أي: قرِّبت لأصحاب الجنة وهم في المحشر وصارت على مرأى منهم ومقربة، يرونها ونضرتها وجمالها، ويشمون ريحها، وبذلك ينعمون، ويسهل عليهم أمر الموقف وطوله، ولا يرون له كربات وشدائد كالكفار.

ثم بيَّن سبحانه أوصاف أهل الجنة:

الوصف الأول: التقوى وهي: توقي ما يوجب عذاب الله تعالى، أو عقابه، أو غضبه، أو عتابه، أو حجابه، ـ وذلك بامتثال ما أمر الله تعالى به، وباجتناب ما نهى الله تعالى عنه.

والتقوى على مراتب خمسة:

١ ـ تقوى الكفر بأنواعه.

٢ ـ تقوى المحرمات بأنواعها.

٣ ـ تقوى الشبهات والمكروهات بأنواعها.

٤ ـ تقوى المباحات التي قد تجر إلى المكروهات أو تحول دون بعض الطاعات.

٥ ـ تقوى الله تعالى حق تقاته.

وقد فصلت الكلام على هذه المراتب في كتاب: (التقرب إلى الله تعالى) وكتاب: (صعود الأقوال) فارجع إليهما.

الوصف الثاني: أن يكون أوّاباً ـ أي: رجّاعاً إلى الله تعالى من المعاصي إلى الطاعات، ومن الغفلة عن الله تعالى إلى ذكره وعبادته، فيترك أهل الغفلة ويَؤوب إلى ربه.

قال تعالى: ﴿**فإنّه كان للأوابين غفوراً**﴾.

فمن شأن الأوّابِ أنْ يرجع إلى عبادة الله وذكره في جميع أوقاته، خاصة في أوقات غفلات الناس عن ذلك.

فمن ذلك صلاة الأوابين بعد فرض المغرب وصلاة في الضحوة الكبرى حين ترمَض الفِصال كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد وغيره عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صلاة الأوابين إذا رمضت الفِصال».

وروى البيهقي في (سننه) عن ابن المنكدر وأبي حازم في قوله تعالى: ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾ قالا: هي ما بين المغرب والعشاء صلاة الأوَّابين. اهـ.

ومقام الأواب يدخل فيه مقام التوبة من الذنوب.

ولذا قال سعيد بن المسيب: الأوَّاب هو الذي يؤوب فيتوب من ذنبه ولا يبقى عليه.

وقال مجاهد: الأوّاب هو الذي إذا ذكر ذنبه في خلوته استغفر منه.

والتوبة الصحيحة تتضمن المحاسبة، والمحاسبة تتضمن مقام اليقظة من الغفلة، التي تحمل صاحبها على السعي في طريق النجاة، والسلامة والبعد عن المهاوي في الهوى المؤدي إلى الهاوية، فهذه منازل ومقامات، يستتبع بعضها بعضاً كما هو مفصل في كتب القوم نفعنا الله تعالى ببركاتهم.

ومن شأن العبد الأوّاب أَنْ يرجو الثواب من الله تعالى في عمله الصالح، ويخاف عقاب الله تعالى من ذنوبه وتقصيره، ويخاف الحساب، ويستحي من نظر الله تعالى إليه أَنْ يراه على حال لا يرضاها سبحانه، وفي هذا مراقبة العبد لربه.

وأَنْ يشكر الله تعالى على نعمه وفضله، وأَنْ يُعَظِّم جلال الله تعالى، ويخاف مقامه، ويهاب سلطانه ـ وفي ذلك يكون صدقه في محبة الله تعالى، وإنابته إليه، وإقباله على مولاه سبحانه.

الـوصف الثالث: أن يكـون حفيـظاً، ومقـام الحفظ يتـطلب أموراً متعددة فإذا استوفاها فهو حفيظ بمعناه الكامل.

حفظ أوامر الله تعالى وأهمها الصلاة.

قال تعالى: ﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون**﴾.

وفي الحديث عن حنظلة بن الربيع قـال: سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول: «من حـافظ على الصلوات الخمس؛ ركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وعلم أَنَّهنَّ حقٌّ من عند الله تعالى دخل الجنة» أو قال: «وجبت له الجنة».

رواه الإمام أحمد بإسناد جيد، ورواته رواة الصحيح كما في (الترغيب).

وعن ابن عمـر رضي الله عنهمـا: أنّ النبي صلى الله عليـه وعلى آله وسلم ذَكَر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كـانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيـامة، ومن لم يحـافظ عليها لم يكن لـه نـور ولا برهـان ولا نجاة، وكـان يوم القيـامة مـع قارون وفـرعـون وهامان وأُبيّ بن خلف».

رواه الإمـام أحمد بـإسناد جيـد، والطبـراني في (الأوسط)، وابن حبان في (صحيحه).

وفي الحديث عن ثوبان، أَنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قـال: «استقيمـوا ولن تُحصُـوا، واعلمـوا أنّ خيـر أعمـالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

ومن حِفظ الأوامـر حفظ الأَيمان، قـال تعـالى: ﴿**واحفـظوا أيمانكم**﴾.

وحفظ الانتهـاء عما نهى الله تعـالى، وهـو حفظ النفس عن

الوقوع في المحرمات، ويدخل في ذلك حفظ الفروج، قال تعالى: ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾.

وحفظ حدود الله تعالى فلا يقربها ولا يتعداها، قال تعالى: ﴿والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾.

ويدخل في ذلك حفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «استحيوا من الله حق الحياء».

فقالوا: إنّا نستحيي من الله والحمد لله.

قال: ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أَنْ تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى، وليذكر الموت والبلى، فمن فعل ذلك فقد استحيىٰ من الله حق الحياء» رواه الترمذي والإمام أحمد وغيرهما.

وحفظ ما وعاه الرأس هو حفظ المدارك: السمع والبصر واللسان عن الوقوع في الحرام.

وحفظ البطن هو حفظها عن إدخال الحرام فيها وأكل ما لا يحل.

وحفظ ما حواه البطن هو حفظ الفرج عن المحرمات.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك» الحديث كما في (المسند).

وروى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من يضمن لي ما بين

لَحيَيْه[1] وما بين رجليه أضمن له الجنة».

وقال صلى الله عليه وسلم: «احفظ ما بين لحييك وما بين رجليك»[2].

الوصف الرابع: أن يخشى الرحمٰن بالغيب، فإنّ شأن المؤمن أنْ يخشى الله تعالى ولو لم يره بعينه، لأنّه يشاهد آثار رحمانيته المحيطة بجميع العوالم، فالرحمٰن هو الذي يمد خلقه بالإيجاد والإمداد، والغذاء والماء والهواء، ويسوق لهم النِّعم التي لا تُعد ولا تحصى؛ الظاهرة والباطنة، وجميع ذلك يعاينه العاقل ويشاهده، فكيف ينكر وجود الرحمٰن، ورحمانيته محيطة به؟!، وكيف لا يخشاه وهو غريق في نعمه ومحاط بها؟! فالحق أنَّه يجب أنْ يخشى الرحمٰن بالغيب، في السرِّ والعلانية، ومِنْ ثَمَّ فإنّه سبحانه نَعىٰ على الكفار، فقال تعالى: ﴿**كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمٰن قل هو ربي لا إله إلاّ هو عليه توكلت وإليه متاب**﴾.

وموضع خشية العبد من الله تعالى هو القلب، وقد تشتدُّ الخشية وتَعظم بأسباب:

وذلك عند سماع القرآن الكريم قال تعالى: ﴿**الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾ الآية.

وعند سماع مواعظ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتذكيره، كما قال العرباض بن سارية رضي الله عنه:

---

(١) اللحيان: هما العظمان المحيطان بالفم ومجمعهما يسمى الذقن.

(٢) رواه الضياء المقدسي، وابن مَنْده وغيرهما عن صعصعة المجاشعي.

(وعظنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم موعظة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون..) الحديث.

وكما قال حنظلة بن الربيع رضي الله عنه - كاتب الوحي - (نكون عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُذكِّرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين) الحديث.

وكما قال أبو هريرة رضي الله عنه: (يا رسول الله ما لنا إذا كنا عندك رقّتْ قلوبنا، وزهدنا في الدنيا) الحديث.

وإذا تَمَّتْ الخشية وكملت؛ فإنّ ذنوب العبد تتحاتُّ وتتساقط عنه كتساقط أوراق الشجر، كما جاء في الحديث عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إذا اقشعرَّ جلد العبد من خشية الله تعالى تحاتَّتْ عنه ذنوبه كما يتحاتّ عن الشجرة اليابسة ورقها».

قال المنذري: رواه ابن حبان في (الثواب)، والبيهقي واللفظ له.

وفي رواية له: قال العباس رضي الله عنه: (كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تحتَ شجرة، فهاجت الريح، فوقع ما كان فيها من ورق نخرٍ، وبقي ما كان من ورق أخضر.

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما مثل هذه الشجرة»؟.

فقالوا: الله ورسوله أعلمْ.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مثل المؤمن إذا اقشعرَّ من خشية الله عز وجل وقعت عنه ذنوبُه، وبقيتْ له حسناته».

فلا ينبغي للمسلم أنْ يكون قلبه أشد قسوة من الصخر، فإنّ من الصخور القاسية لما يهبط من خشية الله، قال تعالى: ﴿**وإنّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإنّ منها لما يَشَّقّق، فيخرج منه الماء وإنَّ منها لما يهبط من خشية الله**﴾.

ودمعة العين من خشية الله تعالى تقي صاحبها من النار:

عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا ترى أعينهم النار: **عين** حرست في سبيل الله تعالى، **وعين** بكت من خشية الله تعالى، **وعين** كفت عمن محارم الله تعالى»[1].

وعن العباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «عينان لا تمسهما النار: **عين** بكت في جوف الليل من خشية الله تعالى، **وعين** باتت تحرس في سبيل الله تعالى»[1].

ومحبة العبد لربه تتطلب الخشية من الله تعالى، والتزام طاعته سبحانه كما قال القائل رحمه الله تعالى:

تعصى الإلّه وأنتَ تزعم حبَّه ... هذا لَعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إنَّ المحب لمن يحب مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمةٍ ... مِنْه وأنت لشكر ذاك مُضيع

الوصف الخامس: ﴿وجاء بقلب منيب﴾.

إنابة القلب رجوعه إلى الله تعالى بالصدق والإخلاص، والمحبة الكاملة الثابتة في الأقوال والأعمال، على وجه مستمر دائم.

---

(١) رواهما الطبراني.

وقد أمر الله تعالى عباده أَنْ يُنيبوا إليه عملًا: قال تعالى: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ الآية.

وأَنْ ينيبوا إليه بالصدق والإخلاص في العمل: قال تعالى: ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ الآية.

وأن ينيبوا إليه بقلوبهم حباً وإخلاصاً وصدقاً على وجه التمكن والثبات: قال تعالى: ﴿وجاء بقلب منيب﴾.

اللهم اجعلنا من المنيبين إليك يا أرحم الراحمين.

قوله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾.

وذلك أنّ الله تعالى قرَّب الجنة إلى أهلها وهم في المواقف مفتحةً لهم أبوابها، فصاروا يرونها قريبةً منهم، وينظرون إلى خُضارها ونضارها وبهجتها، ويشمون رائحتها الطيبة الجنانية، فسلَّاهم ذلك عما فيه أهل الموقف من الحرِّ والأهوال والكربات، وعما يمر على الكفار والعصاة من الشدائد، فتهب عليهم خاصةً نسماتها، ويقع في قلوبهم أنّهم عَمّا قريب سيدخلونها، فارتاحوا لذلك.

ولذلك جاء في الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ريح الجنة يُوجد من مسيرة ألف عام، واللَّهِ لا يجدها عاقٌّ ولا قاطع رحم» رواه الطبراني وغيره.

وأما الكفار والغاوون فإنّهم تُقرب إليهم الجحيم، وتبرز إليهم فيزدادون بذلك كَرباً على كرب.

قال تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين﴾ كما في سورة الشعراء.

وقال الله تعالى: ﴿**وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى**﴾ الآيات.

روى مسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يَجرُّونها» ورواه الترمذي وغيره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضتْ، ثم أُوقد عليها ألف سنة حتى اسودت - فهي سوداء مظلمة» رواه الترمذي وغيره.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: (أكثروا ذكر النار، فإنَّ حرَّها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها حديد).

قوله تعالى: ﴿**ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود**﴾.

- أي: ادخلوا الجنة، وقد فتحت لكم أبوابها، فتحها لكم الفاتح الأول، وهو السيد الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم وأحمد وغيرهما عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: مَن أنت فأقول: محمد، فيقول: بِكَ أُمِرتُ أن لا أفتح لأحدٍ قبلك».

﴿**ادخلوها بسلام**﴾ - أيْ: ادخلوها حال كونكم متلبسين بالسلامة من العذاب والهموم والغموم والكروب، وآمنين من المخاوف كلِّها فلا خوف عليكم في المستقبل، ولا أَنتم تحزنون على شيء مضى، ومتلبسين بسلام من الله تعالى وتحية، ومن

ملائكته الكرام، فهم في سلامة وسلام، وتحيات وإكرام، سالمون من كل هم وكرب.

ولذلك جاء في الحديث[1] عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال:

«إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد: إنّ لكم أَنْ تَصحُّوا فلا تَسقموا أبداً، وإنّ لكم أنْ تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإنَّ لكم أَنْ تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وذلك قول الله تعالى: ﴿**ونودوا أن تلكم الجنة أُورثتموها بما كنتم تعملون**﴾».

ويناديهم الحق جل جلاله: ﴿**يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون**﴾.

كما أنَّ التسليمات والتحيات الإلّهية تتوالى عليهم من الله تعالى، وتتوالى عليهم من الملائكة.

قال الله تعالى: ﴿**تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً**﴾ ـ أيْ: سلام دائم يتوارد عليهم من الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿**سلامٌ قولاً من رب رحيم**﴾ فهو سلام عظيم صادر من رب العالمين إلى أهل الجنة.

روى ابن ماجه وابن أبي الدنيا عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم.

فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة ـ وهو قوله تعالى:

---

(١) قال في (الترغيب) رواه مسلم والترمذي.

﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾.

فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه جل وعلا، حتى يحتجب عنهم سبحانه، وتبقى بركته ونوره»[1].

وهكذا ملائكة الله تعالى تحيّي أهل الجنة عند اللقاء والقدوم، كما قال سبحانه: **﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾**.

وقال تعالى: **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾**.

فالجنة طيبة، وفيها أنواع الطيبات، والطيبات للطيبين، والجنة مجمع الطيبين الأخيار، وأطيبهم بل ومطيِّبهم هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ساكن طيبة، فإنها طابة التي شرفها الله تعالى به صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قد شرَّف الله أرضاً أنتَ ساكنها ... وشرَّف الناسَ إذ سوَّاك إنسانا

صلى الله عليه وسلم.

ولذلك هو أول مَنْ يدخل الجنة والطيبون وراءه، فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأخذوا مكانهم في قصورهم، تواردت عليهم الملائكة عليهم السلام ليهنئوهم ويسلموا عليهم، ويحييوهم بعد الاستئذان والدخول عليهم.

قال تعالى: **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾**.

---

(١) قال الحافظ المنذري: هذا لفظ ابن ماجه، والآخر بنحوه.

قال أبو أمامة رضي الله عنه: (إنّ المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان ـ أي: صفان ـ من خدم، وعند طرف السماطين باب مبوب، فَيُقْبل المَلَكُ من ملائكة الله تعالى فيستأذن فيقول للذي يليه: ملك يستأذن، ويقول الذي يليه للذي يليه: مَلك يستأذن حتى يبلِّغ المؤمنَ فيقول: ائذنوا له، فيقول أقربهم للمؤمن: ائذنوا له، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف»[1].

قوله تعالى: ﴿**ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود**﴾.

والمعنى أنّ ذلك اليوم هو يوم الخلود الأبدي الذي لا موت فيه ولا نفاد له، وأما الأيام التي مضت عليهم في الدنيا فتلك أيام فانية منقضية.

ولذلك إذا دخل أهل الجنة الجنة بُشروا بالخلود الأبدي والبقاء، لأنّ النعيم إذا كان زائلاً فإنه ليس بنعيم خالص، بل يبقى هناك غَمٌّ وخوف بسبب زواله ولو بعد حين.

وأما النعيم الأبدي فإنَّه نعيم على نعيم، فالأبدية في النعيم تزيد المنعَم عليه نعيماً فوق نعيم، وفرحاً شديداً فوق كل فرح.

ولذلك جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿**وأنذرهم يوم الحسرة**﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يؤتى بالموت كأنه كبش أملح، حتى يُوقف على السور بين الجنة والنار.

---

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وعبدالله بن المبارك بأسانيدهم.

فيقال: يا أهل الجنة ـ فيشرئبُّون[1].

ويقال: يا أهل النار ـ فيشرئبُّون[1].

فيقال: هل تعرفون هذا؟

فيقولون: نعم هذا الموت.

فيضجع ويذبح».

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فلولا أنّ الله تعالى قضى لأهل الجنة بالحياة والبقاء لماتوا فرحاً، ولولا أن الله تعالى قضى لأهل النار بالحياة والبقاء لماتوا ترحاً»[2].

رواه الشيخان وأحمد، ورواه الترمذي وصححه وهذا الذي تقدم لفظه.

وعند البخاري: ثم قرأ: **﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة﴾**[3] ـ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ـ أي: هم كفار أهل الدنيا ـ **﴿وهم لا يؤمنون﴾**.

وهذا دليل صريح على أن المراد بقوله: **﴿وهم في غفلة﴾** هم الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة والحساب، فجاء بالآية بعد ذكر الحديث ـ أي: بعد ما بين صلى الله عليه وسلم حديثه جاء بالآية الكريمة ليبين أنّ حديثه السابق هو تفسير للآية الكريمة.

ففي ذلك اليوم يتحسر أهل النار وهم الكفار أشدّ الحسرات، فإنّهم لما دخلوا النار ظنوا أنهم يُعذبون فيها مدة ثم

---

(١) أي: يرفعون رؤوسهم لينظروا إليه.

(٢) الترح ضد الفرح.

(٣) قوله: ﴿وهم في غفلة﴾ فسر بهؤلاء ليشير إليهم، بياناً لكونهم أهل الدنيا، إذ الآخرة ليست دار غفلة. اهـ. كما في شرح العيني.

تهلكهم النار وتفنيهم بالموت، فإذا بالموت قد ذبح ومات، فلا موت، فيزداد العذاب عذاباً، وهو أنهم أيقنوا أنهم مؤبدون.

وأما أهل الجنة فأيقنوا بأبدية نعيمهم، ونعيمهم نعيم لا يتصوره أحد، فلولا أنّ الموت قد ذُبح لمات أهل الجنة من شدة فرحهم بأبدية نعيمهم، وبقائهم في الجنة، في جوار ذي الجلال والإكرام، والطول والإنعام.

اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين - اللهم آمين.

وقد جاء في كثير من الآيات يبين الله تعالى فيها خلود أهل الجنة على وجه مؤبد، ليستبشروا وليفرحوا بهذا الفضل الكبير، والأجر العظيم، الذي لا ينتهي، كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ألا إنَّ سلعة الله غالية ألا إنَّ سِلعة الله الجنة» - أي فليستعدوا، وليشمروا لها، وليعملوا لأجل الفوز بها، ففي ذلك فليتنافس المتنافسون، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

جاء في الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ألاَ هل مشمِّر للجنة، فإنَّ الجنة لا خَطْر لها، هي وربِّ الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتزُّ، وقصور مشيَّدة، ونهر مطَّرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلَلٌ كثيرة، ومُقام في أبد في دارٍ سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهيَّة».

قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمِّرون لها.

قال: «قولوا: إن شاء الله».

فقالوا: إن شاء الله)[1].

(١) قال في (الترغيب): رواه ابن ماجه، وابن أبي الدنيا، والبزار، وابن حبان في (صحيحه) والبيهقي وأجاب عن سنده. اهـ انظر (المسند) و(الترغيب).

فقد حثَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على التشمير للجنـة، والسعي لدخـولها، وذلـك بالأعمـال الصالحـة والكلمـات الطيبة قال تعالى: **﴿ادخـلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾**.

قوله تعالى: **﴿لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾**.

أما قوله تعالى: **﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾** فكلٌّ واحد من أهل الجنـة يطلب ويَسـأل على حسب ما عنـده من العلم بما هنـالك، وعلى حسب مـا يرغب ويهـوى، وإذا فكرت في أقـل أهـل الجنـة درجة؛ وآخرهم دخولاً الجنة وخروجاً من النار لَمّا دخل الجنة ماذا أعـطي من الكـرم الإلٓهي ـ علمت مـا هنـالـك من الفضـل الكبيـر والأجر العظيم، والكرم الإلٓهي الذي لا ينفَد ولا ينقطع.

فقـد جـاء في (الصحيحين)[1]: «أن الله تعـالى يقـول لآخـر أهل الجنة دخولاً الجنة: تَمَنَّ فيتمنى.

ويقول له: تمنَّ، فيتمنى.

حتى إذا انقـطعت به الأمـاني قال: فيقـول الله تعالى: تَمَنَّ كـذا، تَمَنَّ كذا ـ يُـذكره ربـه، حتى إذا انتهتْ به أمنيتـه، قال الله تعـالى: لك ذلـك وعشرة أمثـاله، ولـك ما اشتهت نفسـك ولذَّت عينك».

وجاء في رواية (مسنـد) أحمد: «فيقـول الله عز وجـل: سل وتمنه، فيسأل ويتمنى مقدار ثلاثة أيام من أيـام الدنيـا، ويلقنه الله تعالى ما لا علم له به، فيسأل ويتمنى، فإذا فـرغ قال الله تعـالى: لك ما سألت وعشرة أمثاله معه».

---

(١) عن أبي هـريرة رضي الله عنـه، وجاء أيضاً عن أبي سعيد الخـدري رضي الله عنه، والحديث طويل ذكرت طرفه الأخير وهو موضـع الاستـدلال، وأمـا تمام الحديث فهو مذكور في كتاب: (الإيمان بعوالم الآخرة).

فإذا كان هذا نعيم وجزاء أقل أهل الجنة فما ظنك بمن هو فوقه وهكذا..

نسألك يا رب ذلك من فضلك وكرمك الواسع بجاه حبيبك الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومرافقته في الجنة ـ آمين.

قوله تعالى: ﴿**ولدينا مزيد**﴾.

والمعنى: أَنَّ لهم ما يشاؤون ويتمنون، ولدينا مزيد عطاء لهم كرماً منا وفضلاً، مما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلب بشر، وذلك يشمل أنواعاً من العطاء، ومن التجليات الرضوانية، ومن التجليات بالرؤية العيانية، والتحيات الإلهية ـ وهو سبحانه لا يزال يقول: ﴿**ولدينا مزيد**﴾.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾».

فمهما تصور الإنسان من نعيم وعطاء وكرم فالأمر أعظم من ذلك.

وفي الحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: يا أهل الجنة هل رضيتم؟

فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتَنا ما لم تُعط أحداً من خلقك.

فيقول: أحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

وهكذا يتجلَّى عليهم بالرؤية العيانية، ويحييهم ويحيونه.

قال تعالى: ﴿**تحيتهم يوم يلقونه سلام**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾.

جاء في الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إذا دخلٍ أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: يا أهل الجنة أتريدون شيئاً أزيدكم؟

فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة، ألم تنجنا من النار؟

قال: فَيُكشَف الحجاب، فما أُعطُوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» ثم قرأ: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾ الآية.

وهذه الرؤية العامة لجميع أهل الجنة تكون يوم الجمعة، ولذلك يسمى يوم المزيد، كما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أتاني جبريل وفي يده مرآة بيضاء، فيها نكتة سوداء، فقلت: ما هذا يا جبريل؟

قال: هذه الجمعة فُضِّلْت بها أنت وأمتك، فإن الناس لكم فيها تبع: اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، وفيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيد».

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وما يوم المزيد»؟.

قال جبريل عليه السلام: «إنّ ربك اتخذ في الفردوس وادياً فيه كثيب من مسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من الملائكة وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين وتُحفُّ تلك المنابر بكرسي من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد عليها الشهداء

والصديقون، ثم جاء أهل الجنة فجلسوا مِن ورائهم على تلك الكثيب فيتجلّى لهم تبارك وتعالى حتى ينظروا إلى وجهه سبحانه.

ويقول الله تعالى: أنا ربكم قد صدقتكم وعدي فسلوني أعطكم.

فيقولون: ربنا نسألك رضوانك.

فيقول: قد رضيت عنكم، فسلوني - فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم.

فيقول: لكم ما تمنيتم ولديَّ مزيد.

فهم يُحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربُّهم من الخير»[١].

وأما تجلياته بالرؤية الخاصة فهي في سائر أيّام الأسبوع، وهي على مراتب أهل الخصوص.

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنَّ أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه تبارك وتعالى غُدوةً وعشيّاً».

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾[٢].

ورواه الإمام أحمد مختصراً: قال: «إنّ أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة، يرىٰ أقصاه كما يرىٰ أدناه».

---

(١) رواه الطبراني، وابن أبي شيبة، والبزار، وأبو يعلى، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن مردويه، والإمام الشافعي في (الأم)، والبيهقي في (الرؤية) من طرق جيدة.

(٢) قال في (الترغيب): رواه الترمذي وأبو يعلى، والطبراني والبيهقي.

ورضي الله تعالى عن ابن الفارض القائل:

فيا رب بالخِلّ الحبيب محمد رسولك وهو السيد المتواضع
أنلنا مع الأحباب رؤيتك التي إليها قلوب الأولياء تسارع
فبابك مقصود وفضلك زائد وجودك موجود وعفوك واسع

الجنة هي دار الكرامة في جوار أكرم الأكرمين ذي الجلال والإكرام، يفيض عليهم من فضله، ويجود عليهم من كرمه إلى حيث لا نهاية ولا انقطاع ولا نفاد، قال تعالى: ﴿**هذا ما توعدون ليوم الحساب إنَّ هذا لرزقنا ما له من نفاد**﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما خلق الله جنة عدن بيده، ودلّى فيها ثمارها، وشقَّ أنهارها، ثم نظر إليها فقال لها: تكلَّمي.

فقالت: قد أفلح المؤمنون.

فقال: وعزَّتي وجلالي لا يُجاورني فيكِ بخيل»[1].

ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «خلق الله جنة عدن بيده، لبنة من دُرّة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، مِلاطها مسك، وحشيشها الزعفران، وحصباؤها اللؤلؤ، وترابها العنبر.

ثم قال لها: انطقي.

قالت: قد أفلح المؤمنون.

فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل».

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿**ومَنْ**

(١) رواه الترمذي وأبو يعلى والطبراني والبيهقي.

يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ ـ أي: الذين ظفروا بالخير العظيم.

فصفة البخل هي ذميمة قبيحة، يبغضها الله تعالى ولا يرضاها، ولذلك جاء في حديث الترمذي يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «السخيُّ قريب من الله تعالى، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار.

والبخيل بعيد من الله تعالى، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار.

ولجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله تعالى من عابد بخيل».

فكثرة النوافل العملية من صلاة وصوم لا تجبر نقص البخيل، فإنه وصف ذميم.

ولذلك جاء في الحديث الذي رواه أبو الشيخ عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما جُبل وليٌّ لله عز وجل إلا على السخاء، وحسن الخُلُق».

وروى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «الشحيح لا يدخل الجنة».

نعم لا يدخل الجنة، ولو كان مُسلماً لأنّ الكلام فيه، أما الكافر فكفره يمنعه من دخول الجنة أبداً، فالمسلم البخيل لا يدخل الجنة حتى يطهر من شحه وبخله، وذلك بطهارته من البخل قبل موته، فإنْ لم يطهر فسوف يمر على برازخ الآخرة ومواقفها وأهوالها، فإنْ لم يطهر فيها، لتمكن البخل فيه فلا بدَّ من غمسة في جهنم تُذهب عنه صدأ البخل وأوساخه، فيطهر ويطيب فيدخل الجنة ـ إلا إذا نالته شفاعة سيد الوجود صلى الله عليه وعلى آله وسلم فينجو ويسلم.

وإن أكرم الخلق على الله تعالى هو أكرم خلق الله تعالى الشفيع الأعظم، وهذا هو سيدنا ومولانا، وحبيبنا وقرة أعيننا، وروح أرواحنا السيد الأكرم والحبيب الأعظم سيدنا محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وعلينا معهم في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله تعالى العظيم ـ آمين.

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
هو الحبيب الذي ترجى شفاعته ... لكل هول من الأهوال مقتحم

صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قوله تعالى: ﴿**وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص**﴾.

والمعنى: أنَّ الله تعالى أهلك كثيراً من القرون قبل الكفار برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكانوا أشد قوة وآثاراً في الأرض، ونقبوا في البلاد، داروا فيها وطوفوا فيها؛ توسعاً في الممالك والمتاجر، وحرصاً على تكثير أموالهم، ومباهاةً وتكاثراً وتفاخراً، وبذلوا جهودهم في جمع حطام الدنيا ـ ولكن لا محيص لهم ولا مخلص من الله تعالى، ولا ملجأ ولا منجى يفرون إليه إذا جاءهم الموت أو العذاب ـ وفي هذا تهديد لمن كفر برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وليعتبر بالكفار قبله ماذا كانت عاقبة أمرهم لَمّا كفروا برسلهم، وما جاؤوهم به ـ نعم كانت عاقبتهم الدمار.

والقرن هو عبارة عن أهل عصر من الأعصار، سُمُّوا بذلك لاقترانهم مدة من الزمان، فهو مشتق من قرنت الشيء بالشيء، وقد اختُلف في مقدار تلك المدة المقترن فيها، فقيل: مائة وعشرون سنة، وقيل: مائة، وقيل: ثمانون، وقيل وقيل، ولكن الأكثر على مائة سنة، ويُؤيد ذلك ما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى ليبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَنْ يُجدِّد لها

أمر دينها» ـ كما في (السنن) لأبي داود وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قوله تعالى: ﴿**إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾.

والمعنى: إنَّ فيما تقدم ذكره في السورة من الآيات والمواعظ والعبر ـ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، والمراد بالقلب هنا القلب الروحاني اللطيف.

فإنّ القلب قد يطلق ويراد به القلب الجسماني وهو القلب الصنوبري الشكل، المودع في التجويف الأيسر من الصدر، وفي هذا القلب قَلب روحاني لطيف ويُسمى اللطيفة الربانية، وهي مودعة في القلب الجسماني ولها علاقة قوية بالروح.

وبتلك اللطيفة صار الإنسان إنساناً، وهي موضع الإدراك والعلم والخطاب.

والقلب بهذا المعنى هو المراد في هذه الآية، وفي كثير من الآيات القرآنية:

﴿**إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾.

فالقلب اللطيف الروحاني هو موضع التذكر والتفكر، وهذا القلب له خصائص ووظائف متعددة؛ أذكر جملة منها ـ ولتلك الوظائف والخصائص كان أشرف عضو بل هو الملِك على الأعضاء:

١ ـ القلب هو موضع التعقل، قال تعالى: ﴿**فتكون لهم قلوب يعقلون بها**﴾ وموضع التذكر والتفكر، قال تعالى: ﴿**إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾.

٢ - القلب موضع الإيمان، قال تعالى: **﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون﴾**.

فالقلب كتاب عظيم شريف، شرفه الله تعالى بكتابة الإيمان فيه، وزيَّنه ونوَّره وعشَّقه به، ولما كان القلب هو رئيس الأعضاء وأشرفها جعله الله تعالى موضع الإيمان به سبحانه وتعالى.

٣ - القلب هو زجاجة تتلألأ فيها أنوار الإيمان، قال سبحانه: **﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كَأنَّها كوكب دُريٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾** الآية.

فالإيمان في القلب هو نور من الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ الله خلق الخلق في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ»[١].

فالذين تَعَرَّضُوا لنوره استناروا بنوره فعرفوه.

فالمصباح المنير هو الإيمان الذي أودعه الله تعالى في القلب، والزجاجة هي القلب، والمشكاة هي الكوة المودع فيها القلب وهي الصدر، - وقد شرحت ذلك في كتاب: (الصعود) فارجع إليه تجد التفصيل.

فالقلب هو بيت معرفة الله تعالى، وأما المساجد فهي بيوت عباداته، ولذلك بعدما ذكر القلب ذكر المساجد كما في سورة النور.

---

(١) رواه الترمذي وأحمد وغيرهما.

وفي الحديث[1] عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**القلوب أربعة: قلب أجرد** فيه مثل السِراج يُزهر، **وقلب** أغلف[2] مربوط على غلافه، **وقلب** منكوس - أي: مقلوب - **وقلب** مصفَح.

فأما القلب الأجرد:فقلب المؤمن، سراجه فيه نوره، **وأما القلب الأغلف**:فقلب الكافر، **وأما القلب المنكوس**: فقلب المنافق عَرف ثم أنكر، **وأما القلب المصفح**: فقلب فيه إيمان ونفاق، ومَثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدها الدم والقيح، فأيّ المدَّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه» فإنْ غلبت المَدَّة بمادة الماء الطيب طاب وصلح، وإن غلبت المَدَّة بمادة الدم والقيح خبث وفسد.

٤ - القلب بيت المحبة الإلّهية والمعرفة، وتتجلّى فيه أنواره وأسراره سبحانه، فقلوب أوليائه مصابيح الهدى.

جاء في الحديث عن معاذ رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «اليسير من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، وإن الله تعالى يُحب الأبرار الأتقياء الأخفياء؛ الذين إن غابوا لم يُفتقدوا، وإن حضروا لم يُعرفوا؛ قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة»[3].

٥ - قلب المؤمن كرم يفيض بالخير، ويعطي الثمرات الطيبة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم: «لا تسمُّوا العنب الكـرم، الكرم قلب المؤمن»[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد جيد. (٢) أي: المغلف المشدود عليه.
(٣) رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه، والبيهقي.
(٤) رواه البخاري في (الأدب) والبيهقي.

فقلب المؤمن أحقُّ أنْ يسمى كرماً، لأنّ خيره أكثر، ونفعه أكبر من كرم العنب.

فإن الإيمان المزروع في قلب المؤمن لا يثمر إلا خيراً ونفعاً، من الأقوال والأعمال والأحوال والمعاملات، ونفع العباد والبلاد، وفلاح الدنيا والآخرة.

٦ - قلوب الصالحين أوعية، يملؤها الحق بمعرفته، وهي أوانٍ مليئة بالنور الإيماني، ومحبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

روى الطبراني بإسناد حسن عن أبي عيينة الخولاني، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إن لله تعالى آنيةً من أهل الأرض، وآنيةُ ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبُّها إلى الله ألينها وأرقُها».

وعن ابن عَمرو رضي الله عنهما، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة؛ فإنّ الله تعالى لا يستجيب لعبد دعاءً عن ظهر قلبٍ غافل»[1].

٧ - القلب هو موضع نظر الحق من الخلق.

ولما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم قلب الأكوان ذكره سبحانه في قلب القرآن فقال عز وجل: ﴿**يٓس والقرآن الحكيم إنّك لمن المرسلين**﴾.

وفي الحديث: «إنّ لكل شيء قلباً وقلب القرآن يٓس ومن قرأها كتب الله تعالى له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات دون يٓس»[2].

---

(١) رواه أحمد بسند حسن.
(٢) رواه الترمذي.

وروى مسلم وأحمد وغيرهما ـ وأصله في الصحيحين ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ في حديث طويل ـ: «إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وفي رواية: «إنّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره الشريف ثلاث مرات» الحديث.

فمجمع التقوى كلها في قلبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو أتقى العالمين، ومجمع تقوى كل إنسان في قلبه.

وفي حديث الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لكل شيء معدن، ومعدن التقوى قلوب العارفين».

٨ ـ القلب بيت الحب والبغض، ويَشْرف القلب بالحب الذي يرتضيه الله ورسوله، وذلك بأن يمتلىء بمحبة الله ورسوله، ومحبة من يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث مَنْ كن فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار».

وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أحبُّوا الله لِمَا يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله إيّاي، وأحبوا أهل بيتي بحبي».

وفي خطبته صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ كما في

البيهقي ـ: «أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملُّوا ذكره».

٩ ـ القلب موضع الوَجَل من الله تعالى، وموضع الخشوع لله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿**إنّما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾.

وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ يأْنِ للذين آمنوا أَنْ تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أُوْتوا الكتاب من قَبْل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون**﴾.

فمسلم لا يخشع قلبه معاتب من الله تعالى، بل شأن المسلم أَنْ يخشع قلبه لذكر الله تعالى: بتلاوة القرآن الكريم، وحديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبأنواع صيغ ذكر الله: بلا إله إلا الله، وبالتسبيح، والتحميد والتكبير، وبالصلاة على الحبيب صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والقلب الذي لا يخشع يُستعاذ منه، فإنه قلب قاسٍ، والقلب القاسي بعيد من الله تعالى، وسبب القسوة طول الأمل في الدنيا، وتعلق القلب بحطام الدنيا، فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وحبك الشيء يعمي ويصم، فيعمي القلب ويصمه عن سماع الحق وقبوله.

ونسأل الله تعالى العافية من قلب لا يخشع، وعلم لا ينفع، ودعاء لا يُسمع، وبطن لا تشبع ـ كما استعاذ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من ذلك كله.

١٠ ـ القلب منزل السكينة من الله تعالى.

السكينة نور من الله تعالى يُلقيه الله تعالى في قلب عبده

المؤمن، فيطمئن لها القلب بعد الاضطراب، وتسكن لها النفس، وينشرح لها الصدر.

قال الله تعالى: ﴿**هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيْماناً مع إيمانهم**﴾ الآية.

فالسكينة تنزل إذا تُلي القرآن الكريم، فيزداد الإيمان ويقوى نوره في القلب.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل وفي آخره: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتابه ويتدارسونه بينهم: إلّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده ـ ومن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه».

فمجالس القرآن، ومجالس حديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم منازل السكينة من الله تعالى، ومجتمعات الملائكة وحفاوتهم بالقارئين، وهكذا مجالس العلم الشرعي الديني الذي هو مبني على: قال الله تعالى وقال رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ويرحم الله تعالى الإمام الشافعي القائل:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابي ليس خلف فيه

وقال أيضاً رضي الله عنه:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
فالعلم ما قيل فيه قال حدثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

فالعلوم الفلسفية القائمة على النظريات الفكرية؛ ولم تقم على دليل من الكتاب والسنة فهي ردٌّ على قائلها.

فإذا قيل: قال الله تعالى أو قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يجوز أن يقال في مقابل ذلك قال فلان، وقال الفلاسفة، وقال الحكماء.

فكلام الله تعالى فوق حكمة كل حكيم، لأنّه سبحانه له الحكمة المطلقة التي لا تنتهي، وهو يؤتي الحكمة من يشاء، وقد أنزل الله تعالى على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم الكتاب والحكمة، وعَلَّمه ما لم يكن يعلم علوماً لا يحصيها إلا الله تعالى الذي أعطاه إيّاها، فهو المرجع في جميع الآراء والنظريات، والفِكَر والفهم والعلم، ولذا قال علماؤنا الأولون:

لا خير فيما الفَلّ ... أوله وآخره سفه

ـ أي: فلسفة[1].

فقل لمن يدَّعي في العلم فلسفة ... عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

قال رجل لابن عمر رضي الله عنهما: لو أخَّرتَ تقبيل الحجر الأسود وأشرتَ إليه بيدك من بعيد بدلاً من أن تُجْهد نفسك من الزحام وتقبِّله.

فقال له: من أين أنت؟

قال الرجل: من اليمن.

قال: اترك هذه الكلمة في اليمن، ودعْنا منها هنا، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَبَّله فلا بدَّ أن أقبله اهـ.

فالصحابة رضي الله عنهم كان شأنهم الاتباع وترك الأهواء والآراء.

---

(١) ورضي الله تعالى عن الإمام حجة الإسلام الغزالي الذي ألَّف كتاب: تهافت الفلاسفة، وذكر فيه أنواعاً من أخطائهم وزلاتهم وأباطيلهم.

١١ - صلاح القلب يتبعه صلاح الجسم حِسّاً ومعنىً، وفساده يتبعه فساد الجسم حسّاً ومعنى.

روى الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهة لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَنْ وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراعٍ يَرعى حول الحمى يوشك أنْ يقع فيه.

ألا وإنّ لكل ملك حِمىً، ألا وإنّ حمى الله في أرضه محارمه.

أَلَا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحتْ صلح الجسد كله، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

١٢ - القلب له حواسّ ومدارك سمعية وبصرية، وذوق وشمّ من باب الإدراك والتحسس الروحي - فالمؤمنون هم أهل البصائر القلبية، والأذواق والمواجيد القلبية.

قال تعالى: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾.

وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ الآية.

فلما جاء القرآن بالبصائر أبصرته القلوب المفتَّحة بصائرها، وهناك من عَمي عَنْها وتعاظم فَضَلَّ:

قال الله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وعلى آلـه وسلم: «ذاق طعم الإيمان من رضي بـالله تعـالى ربّـاً، وبـالإسـلام دينـاً، وبمحمـد صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم نبيـاً ورسولاً» متفق عليه.

فهذا ذوق القلب الإيماني.

وقـال صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم: «ثـلاث مَنْ كن فيـه وجَـد بهنَّ حلاوة الإيمـان: أنْ يكون الله ورسـوله أحبَّ إليـه ممـا سواهما، وأنْ يحبَّ المـرء لا يحبه إلا لله، وأنْ يكـره أن يعود في الكفـر بعد إذ أنقـذه الله منـه كمـا يكـره أن يلقى في النـار» متفق عليه.

فهناك مواجيد قلبية يحلو بها قلب المؤمن وينعم بوجدانها.

وأما الكفار فكمـا قال سبحـانه فيهم: **﴿صُمٌّ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾**.

فهم صم القلوب وعميها وبكمها ـ ونسأل الله تعالى العافية.

١٣ ـ صاحب القلب التقي هو من أفضل الناس عند الله تعالى.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهمـا قال: قيـل يا رسـول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أيُّ الناس أفضل؟

فقـال صلى الله عليـه وسلم: «كـل مخمـوم القلب صـدوق اللسان».

قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟

قـال: «هـو التقي النقي لا إثم فيـه ولا بغي، ولا غـلَّ ولا حسد»[1].

---

(١) قـال الحافظ المنـذري: رواه ابن ماجـه بـإسنـاده صحيـح، والبيهقي وغـيره أطـول منه. اهـ.

فسلامة القلب من داء الحسد والغل وما وراء ذلك أمر إيماني، ولا يدخل الجنة إلاّ بقلب سليم، فيجب على المؤمن أن يتباعد عن الحقد والحسد والغل والغش.

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا بني إنْ قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غشّ لأحد فافعل، فإن ذلك من سنتي، ومن أحبَّ سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة».

وعن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن بُدَلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكن دخلوها برحمة الله تعالى؛ وسخاوة الأنفس، وسلامة الصدور»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً فتح له قفل قلبه، وجعل فيه اليقين والصدق، وجعل قلبه واعياً لما سلك فيه(٢)، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه سميعة، وعينه بصيرة» رواه أبو الشيخ.

١٤ ـ القلب موضع الهدى والثبات، أو الزيغ والضلال.

جاء في (السنن) والرواية لابن مَرْدويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً ما يدعو:

«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء.

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب: (الأولياء) مرسلاً، اهـ.

(٢) أي: لما دخل فيه من العلم والتذكير.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ليس من قلب إلاَّ وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أَنْ يُقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه، أما تسمعي قوله تعالى: **﴿ربَّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهاب﴾**».

وقد جاء هذا الحديث من طريق أم سلمة وأنس وغيرهما رضوان الله تعالى على صحابة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أجمعين، بروايات متعددة.

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ... وما القلب إلا أنه يتقلَّب

اللهم ثبت قلوبنا على دينك، فإنك قلت: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**.

١٥ ـ القلب هو منزل الإيمان وبيته.

جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: (حدثنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنّ الأمانة نزلت في جَذر قلوب الرجال، ثُمَّ نَزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة») الحديث كما في الصحيحين.

والمراد هنا بالأمانة الإيمان، وما يتطلبه من أقوال وأعمال، وأحوال وأخلاق، وأداء حقوق الخالق سبحانه، وأداء حقوق المخلوقات.

١٦ ـ في القلب واعظ إلّهي يعظ صاحبه.

جاء ذلك في حديث الإمام أحمد عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، وقد ذكرته بتمامه في تفسير سورة الفاتحة، عند الكلام على الصراط المستقيم.

ورُوي عن أم سلمة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله

عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً جعل له واعظاً في قلبه»، وفي رواية: «من نفسه يأمره وينهاه» رواه الديلمي.

قوله تعالى: ﴿**إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾.

هذا وعد من الله تعالى مُحتَّم، وخبرٌ صادق، وكفالة إلٰهية لمن يُريد أنْ يَنتفع بالقرآن، وأنْ تسريَ روح القرآن في قلبه، ويسير بنور الإيمان.

وإنّ القرآن شفاء محتم، ودواء يشفي العليل، وماء يَروي الغليل لا محالة ـ وذلك أنّ القلوب أصناف:

الصنف الأول: قلب يقظ حاضر حيٌّ، محرَّر من سيطرة الأهواء والآراء عليه، فإن صاحب هذا القلب متى سمع كلام الله تعالى لا بدَّ أنْ يتذكر فوراً، وأنْ يتعظ ويزدجر، ويخشع القلب الوجل من الله تعالى، وربما أخذه البكاء كما قال سبحانه: ﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**﴾.

وقال الله تعالى: ﴿**الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء**﴾.

«اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شر ما قضيت، فإنك تقضي، ولا يقضى عليك، وإنّه لا يَذِلُّ مَنْ واليتَ ولا يعزُّ مَنْ عاديتَ، تباركتَ ربنا وتعاليتَ، فلك الحمد على ما قضيت، أستغفرك اللهم وأتوب إليك».

الصنف الثاني: قلب غافل ساهٍ، فيقال لصاحبه: ألق سمعك، وأصغ لما تسمع وما يتلى عليك، وأشهِد قلبكَ ـ أي: أحضره ولا تتركه غائباً وغافلاً، فلا بدَّ من حصول الهدى والتذكر والنفع، وذلك لأنَّ تمام التأثير هو موقوف على مؤثِّرٍ مقتضٍ، ومحلٍ قابل، وشرط حصول التأثير انتفاء المانع الذي يمنع منه.

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة قواعد حكيمة بليغة يحتاج تفصيلها إلى صحف كبيرة وكثيرة، فجاء بها القرآن الكريم على وجه الإيجاز والإعجاز فإذا حصل المؤثِّر وهو تلاوة القرآن الكريم، والمحلُّ القابل وهو القلب الحي، أو الغافل إذا أحضره صاحبه؛ وَوُجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وغفلته وذهوله عن الاستماع ومعنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ إذا تحقق ذلك حصل الانتفاع والتذكر بالقرآن لا محالة، هذا خَبَرٌ صادق عن رب العالمين، ومن أصدق من الله قيلاً؟

اللهم افتح أقفال قلوبنا بذكرك، وأتمم علينا نعمتك من فضلك، واجعلنا من عبادك الصالحين.

الصنف الثالث: قلوب قاسية معرضة عن سماع القرآن الكريم، ومنصرفة عنه، بل هم على كراهية لسماعه، قال تعالى: **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾**.

فهم يُعرضون ويلغون للتشويش على السامع.

وقال تعالى: **﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأنَّ في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم﴾**.

فهؤلاء وإنْ سمعوا ولكن قلوبهم مشغولة ومعرضة، ومتكبرة

عن السماع بالأذن، فهم يخرجون كأنهم لم يسمعوا.

قال تعالى: ﴿**ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾.

فإذا استحكم هذا الحال في المُعْرض عن سماع القرآن، وصرفته الشواغل والأهواء، وتكبر عن الاستماع لكلام الله تعالى، واستمر على ذلك طُبع على قلبه طابع الكفر.

قال تعالى: ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبَّرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغيِّ يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾.

وقال تعالى: ﴿**كذلك يَطبع الله على كل قلب متكبر جبار**﴾.

واعلم أيها العاقل أنّ القلب لا يَحيى إلا بنور الإيمان، ونور العلم النازل من عند الله تعالى على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو كتاب الله تعالى، وأحاديث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والحكمة المقتبسة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الصادرة عن قَلْبٍ مؤمن منيب مخلص منوَّر.

قال تعالى: ﴿**اعلموا أنّ الله يُحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون**﴾.

قال حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية الكريمة: قال: (يُلين الله تعالى القلوب بعد قسوتها، فيجعلها مُخبتة منيبة، ويُحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة ـ وإلاَّ

فقد علم إحياء الأرض بالمطر مشاهدة)اهـ.

والمعنى: أنَّ الآية تلفت النظر، وتنبه العقل؛ إلى أمر وهو حياة القلوب بهذا القرآن الكريم والحكمة النبوية، فإنَّ ذلك نازل من عند الله تعالى، فكما أَنَّه سبحانه يحيي الأرض بما يُنزله من السماء من ماء؛ فإنّه سبحانه يحيي القلوب بماء القرآن والوحي النبوي، فمن أراد أنْ يحييَ قلبه وتقوى فيه الحياة فعليه بكتاب الله تعالى وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾** الآية.

فجاء صلى الله عليه وعلى آله وسلم بروح يحيي به القلوب والأرواح.

قال لقمان الحكيم لابنه: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله تعالى يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل المطر. اهـ.

وكان صلى الله عليه وسلم يقول في مقدمة خطبته:

«أمَّا بعدُ فإنّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» الحديث كما رواه مسلم وغيره.

وروى الترمذي عن أمير المؤمنين عليّ كرم الله تعالى وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل.

مَنْ تركه من جبَّار قصمه الله تعالى، ومَنِ ابتغى الهدى في

غيره أضلَّه الله تعالى.

وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يَخلُق على كثرة الردّ، ولا تشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿**إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به**﴾.

من قال به صدق، ومَنْ عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم».

قوله تعالى: ﴿**ولقد خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسَّنا من لغوب**﴾.

هذا دليل آخر على قدرته سبحانه على البعث، وإعادة الخلق يوم القيامة ـ خلافاً للكفار الذين أنكروا ذلك واستبعدوا؛ كما ذكر الله تعالى عنهم ذلك في أول السورة.

فَبَيَّن سبحانه أَنَّه خلق ما هو أعظم من الإنسان ومِنْ إعادة الإنسان،وهو خلق السموات والأرض وما بينهما من كواكب ونجوم وبحار وجبال وعوالم كثيرة جداً، وكان ذلك في مقدار ستة أيام مما يَعدُّه الخلائق ـ أي: أيامنا ـ ومع ذلك فإنّه سبحانه لم يمسسه لغوب ولا تعب، لأنّ قدرته ما لها نهاية، وليست حادثة بل قديمة.

ولا يَزال يُمد السموات والأرض وما بينهما بالإيجاد والإمداد، وهو بقدرته يمسك السموات والأرض أن تزولا، وهو بقدرته يُسَيِّرالكواكب والنجوم، وهو بقدرته يخلق أنواعاً من العوالم ما بين السماء والأرض من الجن والإنس، وأنواع الحيوان والطيور، ومن الأشجار، ويمد البحار؛ فهي كما هي لا تنقص

على كثرة أمواجها التي تقذفها البحار على سواحلها، فلم تنقص البحار على مدى الأعصار حتى يشاء الله ذلك.

وهكذا قدرته سبحانه ظاهرة آثارها في السموات والأرض، وما بين السموات والأرض، وما يعتريه تعب ولا نصب.

وقوله سبحانه: ﴿في ستة أيام﴾ تنبيه إلى سرعة الإيجاد والتكوين في إنشاء خلق السموات والأرض وما بينهما، فالسموات في يومين، والأرض في يومين، وما بينهما في يومين، فتلك ستة أيام، ولكن في كل لحظة من هذه الأيام يخلق ويطوِّر ويقلِّب الأشياء من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، حتى انتهت إلى ما هي عليه الآن، سماوات سبعة، وأرضون سبعة، وما بينهما من كواكب ونجوم وشموس وأقمار وجبال وبحار وغيرها - ولا يزال يقلبها ويطورها، ويمدها بالإيجاد والإمداد، فإن الكائنات ما لها غنىً عن إمدادها بالوجود؛ ولا بقدر لمحة بصر أو أقرب، بل هي في حاجةٍ إلى أن يمدَّها الله تعالى بقوله سبحانه: كن كن وهكذا ليثبت عليها وجودها، فهي في كل حال مفتقرة إلى مُوجدها فقراً ذاتياً؛ لأنّها لا تملك الوجود بل هي من عالم الإمكان الذي يأتيه الوجود من واجب الوجود جل وعلا.

والممكن ما له من نفسه وذاته إلا العدم، لكنه قَبِل الإيجاد من واجب الوجود، فالممكن موجود بغيره لا من ذاته، فلولا أن يفيض واجب الوجود عليه الوجود ما للممكن من وجود أصلاً بخلاف المستحيل - كما شرحت ذلك في مواضع متعددة من كتبي - فإن المستحيل هو مستحيل الوجود، فعدمه واجب لاستحالة الوجود عليه.

فقوله سبحانه: ﴿وما مَسَّنا من لغوب﴾ تنبيه إلى سرعة التكوين والإيجاد، يُقال: قطعت المسافة الشاسعة في ساعات

قليلة وما تعبتُ ـ يريد القائل بذلك سرعة سيره، وتمام قوته، وأنه طوى مسافة بعيدة في مُدة قصيرة ولم يتعب.

وفي قوله تعالى: ﴿**وما مسَّنا من لغوب**﴾ استئصال لأصل اللغوب، فإنّ التنكير للتحقير، ومِنْ فيها تقوية وتأكيد للنفي ـ والمعنى: أنّه سبحانه لا يعتريه التعب أصلاً ولا يُتصور في حقه سبحانه، فإنَّ له سبحانه القوة التي لا نهاية لها، قال تعالى: ﴿**ما خلقكم ولا بَعثكم إلاّ كنفس واحدة**﴾.

قوله تعالى: ﴿**فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب**﴾.

في هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتخفيف عنه، والمعنى: تسلَّ بالصبر على الكفار والمنكرين لما جئتهم به، وما أخبرتهم به من البعث وقضايا الإيمان والآخرة، واترك أمرهم إلى الله تعالى، فإنّ حسابهم عليه وهو لهم بالمرصاد لا يعجزونه في الدنيا ولا في الآخرة.

قال تعالى: ﴿**فذكر إنما أنت مذكر**﴾.

وقال تعالى: ﴿**إنْ عليك إلا البلاغ**﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿**واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً**﴾.

﴿**وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب**﴾.

المراد بذلك صلاة الفجر وصلاة العصر، كما دل على ذلك ما رواه الشيخان عن جرير بن عبدالله رضي الله عنهما قال: نظر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليلةً إلى القمر فقال: «إنَّكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر الطالع في

الأفق، هل تضامون[1] في رؤيته، فإن استطعتم أنْ لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا».

ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾.

وقوله تعالى: ﴿ومن الليل فسبحه﴾ - أي: فصلِّ له وهو قيام الليل.

وقوله تعالى: ﴿وأدبار السجود﴾ قال ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلوات المكتوبة، ويدل على ذلك ما جاء في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وما ذاك؟».

قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعتقون ولا نعتق.

قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم مَنْ بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلّا من فعل مثل مافعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين».

فقالوا: يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشآء».

---

(١) بتخفيف الميم مشتق من الضيم، وبتشديدها من الضمّ، والمعنى: هل تتزاحمون وتتضامون في رؤيته.

وقد جاء في الحديث: «معقِّبات لا يخيب قائلهنّ إذا فعلهنّ دبر كل صلاة، ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة» رواه الترمذي وغيره عن كعب بن عجرة رضي الله عنه.

وهناك قول ثانٍ في قوله تعالى: ﴿**وأدبار السجود**﴾ وأنَّ المراد بذلك ركعتان بعد المغرب ـ وقد روي ذلك عن جملة من الصحابة والتابعين أيضاً.

قوله تعالى: ﴿**وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب**﴾.

في تخصيص ذكر هاتين الصلاتين صلاة الفجر وصلاة العصر في هذا تنبيه:

أولاً: إلى المحافظة عليهما في أوقاتهما، لأنهما في مَعرض التأخير؛ أما صلاة الفجر فبسبب النوم، وأما صلاة العصر فبسبب شواغل الدنيا وازدحام أعمالها آخر النهار، فربما شُغل ففوَّت تلك الصلاة عليه في وقتها ـ فليحذر التأخير.

وفيه تنبيه ثانٍ: إلى فضل هاتين الصلاتين في هذين الوقتين، فإنّهما مجمع الملائكة: ملائكة الليل وملائكة النهار ـ كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون ـ أي: صلاة الفجر ـ وأتيناهم وهم يصلون» ـ أي: صلاة العصر ـ متفق عليه.

فعند صلاة الفجر وعند صلاة العصر تجتمع ملائكة الليل

وملائكة النهار الموكّلين بالإنسان، فيجري بينهما الاستلام والتسليم في المناوبة على هذا الإنسان، ثم تعرج الملائكة التي سلّمت الإنسان إلى الملائكة الآخرين، فتعرج إلى السموات وهناك يسأل الله تعالى الملائكة فيقول لهم: كيف تركتم عبادي؟.. الحديث، كما تقدم.

ثالثاً: جاء في كثير من الأحاديث النبوية ما يدل على فضل الإكثار من ذكر الله تعالى في هذين الوقتين - أي: بعد صلاة الصبح حتى طلوع الشمس، وبعد صلاة العصر حتى الغروب - وأذكر طرفاً من تلك الأحاديث:

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من صلى الصبح في جماعة، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين؛ كانت له أجر حجة وعمرة تامة تامة».

وعن سهل رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «من قعد في مصلاه حين يَنصرف من صلاة الصبح حتى يُسَبِّح ركعتي الضحى لا يقول إلا خيراً؛ غُفر له خطاياه وإن كانت أكثر من زبد البحر» رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

وروى أبو داود عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس؛ أحب إليَّ مِنْ أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل.

ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة العصر حتى تغرب الشمس؛ أحب إليّ من أنْ أعتق أربعة من ولد إسماعيل».

قوله تعالى: ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب﴾.

أمر سبحانه كل سامع أنْ يستمع بكليته لما يُخبر عنه سبحانه من أهوال القيامة وأخبارها، وما يجري فيها، وليعلم ما سوف يجري، وليأخذ حذره من ذلك.

وذلك اليوم الذي ينادي فيه المنادي إذا أراد الله تعالى حشر الخلائق وإحياءها، وإخراجها من قبورها، فيأمر الملك فينادي من مكان قريب كل القرب من الخلائق، ويقول لهم: يا أيتها العظام النخرة، والجلود المتمزِّقة، والشعور المتقطعة، إنّ الله يأمرك أنْ تجتمعي لفصل القضاء - وفي رواية: لفصل الحساب.

والمنادي هو إسرافيل عليه السلام، كما روي ذلك في كثير من الآثار.

فليكن العاقل على حذر، وليستعد لذلك اليوم، ولذلك أمر الله تعالى الإنسان بالاستماع بكليته؛ اهتماماً بأمر ذلك اليوم فإنّه يوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

اللهم رحماك رحماك يا أرحم الراحمين، ويا رحمٰن يا رحيم، أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين فإنك قلت وقولك الحق: ﴿وهو يتولى الصالحين﴾.

﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج﴾.

فهم كلهم يسمعون وإنْ كان منهم مَن كان ينكر في الدنيا، ولكن يرى ويَسمع أنَّ الأمر حق واقع لا محالة فيه، فإنّ جميع ما أخبر الله تعالى بوقوعه فإنه حق، وهو مقتضى الحكمة الإلٰهية، وهو محقق الوقوع البتة دون ريب.

قوله تعالى: ﴿إنّا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾.

هنا تتجلى عظمة الله تعالى وكبرياؤه، وأنّه على كل شيء

قدير، فهو الذي يحيي ويميت لا غيره، وهو الذي يبعثهم ويصيّرهم إليه بعد موتهم وتفرقهم، وقد صاروا تراباً ولا يقدر على ذلك أحد غيره، ولا يشاركه في ذلك أحد؛ بل هو الواحد الأحد في الذات والصفات والأفعال.

قوله تعالى: **﴿يوم تشقّق الأرض عنهم سِراعاً ذلك حشر علينا يسير﴾**.

إنّ الله تعالى يأمر الأرض حين يُريد أن يحشرهم ويجمعهم ليوم الجمع أنْ تتخلى عن جميع ما في بطنها بسرعة، فتطيع أمر الله تعالى مسرعةً فهي تنشق عن أهل القبور فيخرجون بسرعة.

قال سبحانه: **﴿إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحُقَّت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلَّتْ وأذِنتْ لربها وحُقَّت﴾**.

ـ أي: ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلَّت عنهم كلهم، حيث سمعت لأمر ربها بذلك وحُقَّ لها أن تسمع مطيعة له، منقادة لأمره، مسرعة في تنفيذ ذلك كل الإسراع، وفي هذا تتجلَّى عظمة قدرته تعالى.

وفي (صحيح) مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنا أول من تنشق عنه الأرض..».

وهذا من خصائصه التي أكرمه الله تعالى بها صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وروى الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم وهذا لفظه: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنا أول من تنشق عنه الأرض، ثم أبو بكر وعمر، ثم أهل البقيع فيحشرون معي ثم أنتظر أهل مكة» الحديث.

وروى الترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنا أوّل الناس خروجاً إذا بُعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشّرهم إذا أيِسوا ولواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر».

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنا أول من تنشق عنه الأرض فأُكْسَى حُلَّةً من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري».

قوله تعالى: **﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبَّار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾**.

في هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتخفيف عنه، وتهديد شديد ووعيد أكيد للمكذبين.

وذلك أنَّه سبحانه يعلم ما يقولون من التكذيب لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وما جاء من إنكارهم البعث والحشر وما وراء ذلك، فكل ذلك معلوم عنده، وسوف يجمعهم وينبئهم بما عملوا وبما قالوا، ويحاسبهم على ذلك، فهوِّن على نفسك يا رسول الله وكِلْ أمرهم إلى الله تعالى، فإليه مرجعهم، وما أنتَ عليهم بجبَّار تقهرهم وتجبرهم على الإيمان بما جئتهم به، قال تعالى: **﴿فذكر إنّما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾**.

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يُذكِّر بالقرآن، وما فيه من وعد ووعيد، وثواب وعقاب، وما اشتمل عليه من المواعظ والإنذارات؛ التي ظهرت آثارها وعواقبها في الأمم السابقة، وما اشتمل عليه القرآن الكريم من قَصص الأولين، ونتائج أعمالهم، وحلول العذاب فيهم لَمَّا كذبوا رسلهم.

كما قال سبحانه: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿**فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**﴾.

﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾.

فشأن العاقل أن يتذكر بتذكير المذكر الصادق والخبر القاطع، فهذا هو رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم الصادق الأمين، وهذا القرآن كلام ربّ العالمين، ثبت ذلك قطعاً بإعجازه عن أن يأتوا بمثله، فهو كلام الله تعالى حقاً وقطعاً لا مرية فيه، فشأن العاقل أنْ يتعظ بمواعظ كلام الله تعالى، وأنْ يتذكر بتذكيره، ويأخذ حذره، ويعمل بموجب تلك المواعظ وبذلك التذكير القرآني؛ ولا يتعامى عن ذلك ولا يتغافل، بل يعلم أنَّ تلك المواعظ والتذكيرات هي موجهة إليه وإلى كل عاقل.

قال تعالى: ﴿**أَفَمِنْ هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون**﴾.

وقال تعالى: ﴿**فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حُمُر مُستنفرة فرَّتْ من قسورة**﴾.

فالموعظة والتذكير بالقرآن له أثره الكبير في النفوس، وعليه هيمنة على القلوب، وله باعث؛ حيث يبعث السامع إلى العمل بموجب ذلك التذكير والوعظ، ومن أنكر أثر الوعظ والتذكير بالقرآن فهو جاهل بكلام الله تعالى، بل يُخشى عليه الكفر؛ لأنّ فيه تكذيب الله تعالى حيث يقول: ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾.

وقال تعالى: ﴿**فذكر إنْ نفعت الذكرى سيذكر مَنْ يخشى**﴾.

فإنّ معنى ذلك أن التذكير بالقرآن يحمل على الخوف من الله تعالى، ومن وعيده فيلتزم أوامر الله تعالى وينتهي عما نهاه.

وما أحسن ختام هذه السورة بقوله: ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ وقد افتتحها سبحانه بالقرآن المجيد، كما قال تعالى: ﴿**قٓ والقرآن المجيد**﴾ فافتتحها وختمها بالقرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾.

في هذا دليل على أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم مأمور بالتذكير، كما أنَّه سبحانه أمره بالوعظ، فقال تعالى: ﴿**وعِظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً**﴾.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم إمام المذكرين، وإمام الواعظين، وهذا يدل على أثر التذكير والوعظ ونفعهما المحقق، قال سبحانه: ﴿**وذكر فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين**﴾.

وقال تعالى: ﴿**فذكر إنْ نفعت الذكرى سيذكر من يخشى**﴾.

فالعاقل الذي يخشى عواقب الأمور لا بُدَّ أن ينتفع، ولذلك كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُذكر بالقرآن وما جاء فيه من ذكر الآخرة، وذكر الموت والنار، وبيان صفات أهل الجنة، وصفات أهل النار، ويذكِّر بالوعد والوعيد، والبشارة والنذارة، والترهيب والترغيب.

روى البيهقي وأبو نعيم عن أنس رضي الله عنه قال: (تلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذه الآية: ﴿**وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ**﴾.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أُوقِد على النار ألفَ عام حتى احمرَّتْ، وألفَ عام حتى ابيضَّت، وألفَ عام حتى اسودَّتْ، فهي سوداء مظلمة لا يُطفأ لهبها».

قال وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم رجل أسود فهتف بالبكاء، فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال: «مَنْ هذا الباكي بين يديك»؟.

فقال: «رجل من الحبشة» وأثنى عليه معروفاً.

قال: «فإن الله عز وجل يقول: وعزّتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي لا تبكي عين عبد في الدنيا من مخافتي إلا أكثرت ضحكها في الجنة»).

وروى الحاكم بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما لما أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة**﴾ تلاها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذات يوم على أصحابه، فخرَّ فتىً مَغشياً عليه، فوضع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يده على فؤاده فإذا هو يتحرك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «قل لا إله إلا الله» فقالها فبشره بالجنة.

فقال أصحابه: يا رسول الله أمِن بيننا ـ أي: هي خصوصية له من بيننا؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أوما سمعتم قول الله تعالى: ﴿**ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد**﴾».

والمعنى: أنّ كل من تحقق بهذا الخوف نال الأمان يوم الزحام ـ اللهم اجعلنا منهم.

وروى مسلم والترمذي عن حنظلة بن الربيع رضي الله عنه قال: لقيني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: كيف أنتَ يا حنظلة؟

فقلت: نافق حنظلة.

فقال: سبحان الله ما تقول؟

فقال له حنظلة: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُذكرنا بالنار والجنة كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عنده وعافسنا الأزواج ـ أي: خالطنا الأزواج والأولاد والضيْعات ـ نسينا كثيراً.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: وإنِّي لأجد مثل هذا.

فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فذكرا له ذلك.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ساعة وساعة، ساعة وساعة».

فانظر في تأثير وعظه وتذكيره صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وانظر في تأثر الصحابة بالتذكير، فمجالس التذكير بالقرآن والوعظ لها شأنها ونفعها وتأثيرها ـ هذا لا ينكره إلا جاهل.

قال تعالى: **﴿كلا إنّها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾**.

وقال تعالى: **﴿إنَّ هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾**.

وقال تعالى: **﴿إنّ في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾**.

فالقرآن له روح تحيىٰ به القلوب كما تقدم، والحمد لله رب العالمين.

كما أنّ في التذكير بالقرآن الكريم استعراضاً لآيات الله تعالى الآفاقية والنفسيَّة، وبيان دلائل وجوده ووحدانيته، وكمال صفاته ومحاسن أسمائه سبحانه.

كما أنّ في التذكير بالقرآن الكريم ذكر قصص الأولين، وأحوال الأمم السابقة، وبيان عواقب المحسنين والمسيئين.

كما أنّ في التذكير بالقرآن الكريم يحصل خشوع القلب، لأنّ القرآن الكريم له سطوة وهيمنة على القلوب والنفوس، فإنّه كلام الله تعالى ـ ويعظم الكلام على قدر المتكلم به.

روى البيهقي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿**أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون**﴾ بكى أهل الصفة حتى جرتْ دموعهم على خدودهم، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حنينهم بكى معهم، فبكينا لبكائه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى، ولا يدخل الجنة مُصِرٌّ على معصية الله تعالى، ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون فيغفر لهم».

وفي هذا دليل على أنَّ شأن المؤمن أنْ يخشع لسماع القرآن، وأن يَتَّعِظ به، وأن تعتريه الخشية من الله تعالى، لأنّه كلامه يخاطب به عباده ويُسمعهم ذلك؛ وليس من شأن المؤمن السهو والجمود، وعدم التأثر والخشوع إذا سمع آيات الله تعالى تتلى، بل قد وصف الله تعالى المؤمنين فقال سبحانه: ﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع**﴾ الآية كما تقدم.

فالقرآن العظيم هو أصدق الحديث، فيجب الإصغاء إليه، والتذكير به والاتعاظ به، ومَنْ لم يُذكِّر بالقرآن أو يتذكر به، أو يعظ أو يتعظ به فإنّه داخل تحت التوبيخ، وتحت الإنكار الوارد في قوله تعالى: ﴿**أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون**﴾.

فهو أصدق الحديث لأنه كلام الله تعالى أنزله بعلمه.

وفي الحديث عن جابر رضي الله عنه، كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا خطب احمرَّتْ عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه كأنَّه منذر جيش يقول: «أمَّا بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أتتكم الساعة بغتة.

بُعثت أنا والساعة هكذا، صبحتكم ومستكم.

أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسه، مَنْ ترك مالاً فهو لأهله، ومن ترك دَيْناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ، وأنا أولى بالمؤمنين».
رواه مسلم وأحمد والنسائي وغيرهم

فكلام الله تعالى هو أفضل الكلام، ويعظم الكلام على قدرِ عظم المتكلم به، ويشرف على قدر شرف المتكلم به، فإذا أيقنت أنه كلام الله تعالى عظم عندك وآثرته على كلام الناس، فإنه خير الكلام، وأصدق الحديث، وفيه أحسن القصص، وأعظم التذكير، وأبلغ المواعظ، وأقوى الزواجر، أعجز البلغاء، وأفحم الحكماء والعلماء، وحيّر ألباب الأذكياء والنجباء ـ حَيرة إثبات لا حيرة شك، فَهِموا من معانيه، واغترفوا من بحر علومه ومعارفه، يَرون

ما أخذوا منه كقطرة من بحر، وكيف لا يكون كذلك، والله تعالى يقول: ﴿**قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً**﴾.

فعلم العلماء، ومعارف العرفاء، وعلم سائر الخلائق هي بالنسبة لعلم الله تعالى كنقرة عصفور[1] من بحر كما جاء في حديث الخضر مع موسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

فهو كلام الله تعالى خير ما يوعظ به، وأفضل ما يجب التذكير به، ولذلك كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يفتتح به خطابه.

وفي الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خطب فقال: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير المِلل ملة إبراهيم، وخيرَ السنن سنة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن.

وخير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدىٰ، وخير العلم ما نَفَع، وخير الهدي ما اتُّبع، وشرّ العمى عمىٰ القلب.

واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى.

وشرّ المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة.

---

(١) وهذا من باب ضرب المثل كما بينت ذلك وشرحته في مواضع من كتبي.

ومِن الناس من لا يـأتي الصلاة إلا دبـراً ـ أي: بعـد فـوت الوقت ـ ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً، وأعـظم الخطايـا اللسان الكذوب.

وخير الغنى غنى القلب، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله تعالى، وخير ما وقر في القلب اليقين.

والارتياب من الكفر، والنياحة من عمـل الجاهليـة، والغلول من جُثا(١) جهنم، والكنز كيٌّ من النار.

والشعـر من مزاميـر إبليس، والخمـر جمـاع الإثم، والنسـاء حبالة الشيطان، والشباب شعبة من الجنون.

وشر المكاسب كسب الربا، وشر المآكل مال اليتيم.

والسعيد من وُعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه.

وإنّما يصير أحدكم إلى موضع أربع أذرع، والأمر بآخره.

وملاك العمل خواتمه، وشر الروايا روايا الكـذب.

وكل ما هو آتٍ قريب.

وسباب المسلم فسوق، وقتال المؤمن كفر، وأكـل لحمه من معصية الله، وحُرمة ماله كحرمة دمه.

ومن يتـألَّ على الله يُكـذبـه، ومن يَغفـر يغفـر الله لـه، ومَنْ يَعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومَنْ يَصْبر على الـرزية يعـوضه الله، ومن يتّبـع السُّمعة يُسمـع الله به، ومَنْ يصبـر يضعِّف الله له، ومن يعص الله يعذبه الله.

---

(١) قـال العلامـة المناوي جُثـا جمع جثـوة بالضم الشيء المجمـوع، كـذا في (النهاية) قال: ومن التقريب الجثوة مثلثة هي: الحجارة المجموعة اهـ.

اللهم اغفر لي ولأمتي، اللهم اغفر لي ولأمتي، اللهم اغفر لي ولأمتي.

أستغفر الله لي ولكم»[1].

قوله تعالى: ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾.

في هذا دليل على أنَّ مِنْ أهم مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم مَوْقف التذكير والوعظ، كما قال سبحانه:

﴿**فذكر إنّما أنت مذكر**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وعِظْهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً**﴾.

ولقد اهتزَّ المنبر تأثراً بوعظه صلى الله عليه وسلم وتذكيره.

كما جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر: ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾.

ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجد الربّ نفسه، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز أنا الكريم» فرجف المنبر برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قلنا إنّه ليخرنَّ به) - أي: ليسقطن به - رواه أحمد بهذا اللفظ، ورواه مسلم.

---

(١) رواه البيهقي في (الدلائل) وابن عساكر عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه، ورواه أبو نصر السجزي في (الإبانة) عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً، ورواه ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً - ومن العجب كيف يُمكن حكمه بالوقف ويقول في آخر الحديث: «اللهم اغفر لي ولأمتي» ثلاثاً؟! - وقد حسنه السيوطي.

قوله تعالى: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾.

هناك وعد ووعيد.

أما **الوعد** فهو الإخبار عما فيه ما يسر ويُفرح، وفيه البشارة.

وأما **الوعيد** فهو التهديد بالعقاب لمن عصى وتمرد.

وقد يطلق الوَعْد ويُراد به الوعيد من باب الاستهزاء والتهكم:

قال تعالى: ﴿**النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير**﴾.

فهذا تهكم بهم ـ والمعنى: أنَّه إنْ كان لهم وعد فوعدهم النار.

وهكذا كثيراً ما يذكر سبحانه الوعد للمؤمنين، والوعيد للكفار والعصاة والمتمردين.

فالوعد بالخير وإيصال ما يُسر، وذلك يعطي ويَبعث الرغبة، ويحمل على الطاعة.

وأما الوعيد بالعقاب والتهديد بالعذاب؛ ذلك يبعث الرهبة والخوف من المخالفات، والتقصير في الطاعات.

وهكذا البشارة والنذارة.

وقد قرن الله تعالى في مواضع متعددة من الآيات الكريمة قرن فيها بين ذكر الوعد والوعيد، والبشارة والنذارة، والترغيب والترهيب، ليكون العبد راغباً فيما عند الله تعالى، وفيما وعد سبحانه من الأجر والثواب، ويكون أيضاً راهباً من عذاب الله تعالى وعقابه، فيكون حاله بين الخوف والرجاء: يرجو رحمة الله تعالى ويخشى عذابه.

قال تعالى في المؤمنين - ﴿أَمَّ مَنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكر أولوا الألباب﴾.

إلى بابك العالي مددت يد الرجا
وَمن جاء ذاك الباب لا يختشي الردى

فهذا شأن أولي الألباب، والعلماء بدين الله تعالى، يحققون القول بالعمل، وهم على رجاء رحمة الله تعالى، وعلى حذر من الآخرة.

فهم ينظرون إلى تقصيرهم في أعمالهم، ووقوعهم في الهَنات والسيئات فيخافون، ولكن ينظرون إلى سعة مغفرة الله تعالى وسعة رحمته فيرجون.

قال تعالى: ﴿نبىء عبادي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم وأنَّ عذابي هو العذاب الأليم﴾.

وقال تعالى: ﴿اعلموا أَنَّ الله شديد العقاب وأنَّ الله غفور رحيم﴾.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يقول الله تعالى:

يا ابن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي.

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي.

يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

ويرحم الله تعالى القائل:

إلٓهي عبدك العاصي أتاك   مقرّاً بالذنوب وقد رجاكَ
فإنْ ترحم فأنت لذاك أهل   وإن تطرد فمن يرحم سواكَ

ويرحم الله تعالى القائل:

إلٓهي ويا من عليه اعتمادي   وعفوك قصدي وهديك زادي
وقفت ببابك أرجو نجاةً   وما لي سواك مجيراً أناجي
فيا ربِّ لا تُخزني أنت عوني   تَقَبَّل دعائي وسدِّد خطاي
ولا تشقني واصرف السوء عني   وهب لي رضاك واقبل دعائي

آمين

ورضي الله عن الإمام الشافعي القائل:

إليك إلٓه الخلق أرفع رغبتي   وإن كنت يا ذا المنّ والجود مجرما
ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي   جعلت الرجا مني لعفوك سُلَّما
تعاظمني ذَنبي فلما قرنتُه   بعفوك ربِّي كان عفوكَ أعظما
وما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تزل   تجود وتعفو مِنَّةً وتكرُّما
ألستَ الذي غذَّيتني وهديتني   وما زلتَ مَنَّاناً عليَّ ومُنعما
عسى مَن له الإحسان يغفر زلَّتي   ويَستر أوزاري وما قد تقدَّما

ويرحم الله تعالى القائل:

يا رب قد عظمت ذنوبي كثرة   ولقد علمتُ بأنّ عفوك أعظم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا   وجميل عفوكَ ثم أنِّي مسلم

قوله تعالى: **﴿فَذَكِّر بالقرآن مَنْ يخاف وعيد﴾**.

في هذه الآية تخويف من وعيد الله تعالى، فيجب على العباد أنْ يخافوا عذابه، فإنّ عذابه أليم، وأنْ يحذروا عقابه، فإن عقابه شديد، كما أخبرهم سبحانه عن ذلك.

وقد بين سبحانه أنواعاً من الوعيد بالعذاب والعقاب على

أنواع المخالفات، بعضها أشد من بعض، فأوعد الكفار بالعذاب، وأوعد العصاة والفجار عامة، وأوعد العصاة بسبب ترك الصلاة، والعصاة بترك الزكاة، والعصاة بترك الصوم، والعصاة بترك الحج، وأوعد على جميع الكبائر.

فهناك الوعيد بالعذاب الأليم للكفار.

قال تعالى: ﴿**النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وقُل الحق من ربِّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وسآءت مرتفقاً**﴾.

فعذاب الكفار أليم وشديد، في جهنم خالدين فيها أبداً..

وقال تعالى: ﴿**هذان خصمان اختصموا في ربِّهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يُصبّ من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلّما أرادوا أنْ يخرجوا منها من غَمٍّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق**﴾.

فقد ذكر سبحانه في هذه الآية الكريمة ألواناً من العذاب للكفار، حتى يَخاف العاقل، ويتباعد عن الكفر بأنواعه.

وهناك آيات وآيات أوعد الله تعالى بها الكفار بعذاب النار، يعرفها كل مسلم، وأوعد العصاة عامّة، وحذر عباده المؤمنين من الوقوع في المعاصي:

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله**

ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾.

فيجب على المؤمن أنْ يقي نفسه وأهله من النار، فيمتثل الأوامر ويأمر أهله بها، وينتهي عن المحرمات وينهاهم عنها، فإنه راع وأهله رعيته، وكل راع مسؤول عن رعيته، كما جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته:

فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته.

والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته.

والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها.

والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته.

والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته.

فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» رواه أصحاب السنن والإمام أحمد، وأصله في الصحيحين.

وأوعد العصاة المرتكبين وحذرهم من عذاب النار، ودعاهم للتوبة من ذنوبهم حتى يتوب عليهم:

قال سبحانه: **﴿والذين لا يَدعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومَن يفعل ذلك يلق أثاماً يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾** الآيات.

كما دعا سبحانه جميع المسرفين من عباده إلى التوبة والإنابة إليه:

فقال سبحانه: **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا**

تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أنْ يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين﴾.

روى مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أما أهل النار الذين هم أهلها[1] فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم[2]، فأماتَتْهم إماتَةً حتى إذا كانوا فَحْماً أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء - فينبتون نبات الحِبّة في حميل السيل».

وروى البخاري وأصحاب السنن عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيدخلون الجنة يسمّون الجهنّميّين».

ومن الوعيد الوارد في الجبارين والمتكبرين وغيرهم ما رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصر بهما، وأذنان يسمعان، ولسان ينطق، يقول: وكلت بثلاثة: بمن دعا مع الله إلّهاً آخر، وبكل جبّار عنيد، وبالمصوِّرين».

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله

(١) يعني: الكفار بأنواعهم فإنهم مخلدون.
(٢) وهم أهل المعاصي.

عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الكبرياء ردائي، والعز إزاري؛ فمن نازعني شيئاً منهما عذبته».

فالواجب على المؤمن أَنْ يخاف وعيد الله تعالى بالعذاب، فيتباعد عن المحرمات، ويجتنب الكبائر والمخالفات.

ويجب عليه أَنْ يمتثل أوامر الله تعالى، ويرجو رحمة ربه وثوابه، ويفرح بفضل الله تعالى، ويَطمع بوعده، ويستبشر بما وعد الله تعالى به عباده المؤمنين:

قال الله تعالى: **﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾**.

وقال تعالى - في المؤمنين -: **﴿يَستبشرون بنعمة من الله وفضل وأَنَّ الله لا يُضيع أجر المؤمنين﴾**.

وقال تعالى: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أُمُّه كُرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربِّ أوزعني أَنْ أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأَنْ أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إنِّي تبت إليك وإنِّي من المسلمين أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾**.

اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا.

اللهم أرضنا وارض عنا.

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلِّها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

ويرحم الله تعالى القائل:

يـا من إليه بجوده أتوسل ... وعليه في كل الأمور أعوّل
أدعوك رَبِّ تضرعاً وتذللا ... فإذا رددت يدي فمنْ ذا أسأل
قد قادني أملي إليك ودلّني ... جود عليك وفاقة وتذلّل
وعلمت أنّك لا تُخيّب آملاً ... أضحىٰ لجودك يا كريم مؤمّل
فبنور وجهك كن لذنبي غافراً ... فعليك في غفرانه أتوكّل

ورضي الله تعالى عن الإمام الشافعي القائل في مناجاته لربه سبحانه:

بموقف ذلي دون عزتك العظمىٰ ... بمخفيّ سر لا أحيط به علما
بإطراق رأسي باعترافي بذلّتي ... بمدّ يدي أستمطر الجود والرحما
بأسمائك الحسنى التي بعض وصفها ... لعزتها يستغرق النثر والنظما
بعهد قديم من ألست بربكم ... بمن كان مكنوناً فعلّمته الأسما
أذقنا شراب الأنس يا من إذا سقى ... محباً شراباً لا يُضام ولا يظما

كما أنّ في التذكير بالقرآن الكريم تذكيراً بآلائه سبحانه، ونعمآئه، وذكر أيام لقائه.

وهكذا فوائد التذكير بالقرآن الكريم مع الوعظ به لا تُحد ولا تعد، ولولا أنّ الأمر كذلك لما قال سبحانه: ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾.

فافهم علمنا الله تعالى وإيّاك ما ينفعنا في الدنيا والآخرة، ونعوذ بالله تعالى العظيم من علم لا ينفع.

اللهم زدنا علماً، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهاب.

وصلى الله تعالى العظيم على سيدنا محمد ذي الخلق العظيم، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلينا معهم في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله تعالى العظيم ـ آمين.

والحمد لله رب العالمين.

وقد تم جمع هذا الكتاب في العاشر من شهر المحرم/١٤١٣هـ وذلك بتوفيق الله تعالى وعونه وإمداده.

وأسأل الله تعالى أن ينفعني به، وأن ينفع به، ويجعل فيه النور والهداية.

وجزى الله تعالى عنا سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما هو أهله.

والحمد لله أوَّلاً وآخراً، كما يُحب ربنا أنْ يحمد ويرضى، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وعلينا وعلى والدينا، ومن له حق علينا، وعلى جميع المسلمين والمسلمات، وسلَّم تسليماً أبداً أبداً أبداً ـ آمين.

* * *

المحتوى

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

كتب المؤلف

* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.
* الإيمان بالملائكة عليهم السلام، ومعه بحث مختصر حول عالم الجن.
* تلاوة القرآن المجيد ـ الطبعة الرابعة مزيدة زيادات هامة.
* التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه.
* الدعاء: فضائله، آدابه، ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات.
* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: شمائله الحميدة، خصاله المجيدة ـ الطبعة الثامنة.
* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.
* شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله: فضائلها، معانيها، شواهدها ومشاهدها؛ مطالبها.
* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.
* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها، فضائلها، فوائدها.
* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين، فضائلها، آثارها، آدابها.
* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.
* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.
* حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم.
* حول تفسير سورة الحجرات.
* أدعية الصباح والمساء.